وادي النسيان

صبري مدكور

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : وادي النسيان

المؤلف : صبري مدكور

تدقيق لغوي : هدير محمود

تصميم الغلاف : محمد دربالة

رقم ايداع: 19890 - 2019

ترقيم دولي:978-977-85556-2-2

دار مسار للنشر و التوزيع

01020439639

massar.pub1@gmail.com

ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك
- الزقازيق - الشرقية

صبري مدكور

وادي النسيان

مسار
للنشر و التوزيع
Massar publishing & Distribution

إهداء

إلى: زوجتي
عندما اِلتقيتك ما كان لي أن أختار، ما كان لي أن أحتار أنتِ هدية
من الله وأجمل قرار!

هذه الرواية أستطيع أن أقول لكم أن أحداثها حقيقية لكني أكاد أجزم أنَّها من وحي الخيال.

صبري

١

أول شيء ممكن أن تلاحظه عندما تنظر إلى حمدان عبد الكريم، هو وجهه البشوش الذي يعطيك اِنطباع سريع بالود والحميمية وكأنَّه صديقك منذ زمن، وقد تأخذ وقتًا، وأنت في حيرة من أمرك، تحاول جاهدًا دون جدوى أن تتذكر متى رأيته من قبل، ومن ثمَّ تدقق النظر إلى تقاطيع وجهه الأسمر، وعيناة الواسعة والشارب المهذب بعناية بالغة، وقامته الطويلة وجسده الرشيق المتناسق.
عندما تتعامل معه يدهشك ذكاؤه الحاد، وسرعة بديهته ولباقته واعتزازه بنفسه، لكنك لوهلة عندما تقترب منه ترى في عينيه اِنكسار وحزن مكبوت يحاول دائمًا التغلب عليهما بالابتسامة التي تعلو شفتيه.
حمدان عبد الكريم فتى أحلام الكثير من فتيات نجع هوارة، كذلك فإنه محط احترام، وتقدير معظم الرجال والشباب الذين يرون فيه الشاب المستقيم المتعلم، الذى لا يتوانى في مد يد العون والمساعدة لمن يحتاج إليه، أو يقصده في شيء ما، كل هذة المزايا التي يتمتع بها والثراء الذي ينعم به، حيث إنَّه اِبن الحاج

عبد الكريم الذي يمتلك عشرة أفدنه في النجع ومن المال الكثير والوفير، لكن دائمًا ما كان يرى نفسه سجين تقاليد وأعراف قديمة متأصلة، وممتدة الجذور وكلمة فلاح تطارده أينما ذهب (تعني في قاموس أهل النجع الشخص ذو الأصل الواطي!).

قد لا يعرف الكثيرون منا أي شيء عن صعيد مصر غير ما يظهر على شاشة السينما أو في المسلسلات، وهو للأسف دائمًا ما يكون مصحوبًا بكل جهل لتفاصيله، وتقاليده وأعرافه وأناسه، الذين في الغالب يكونوا محط سخرية واستهزاء، من خلال لهجة تبدو أبعد ما يكون عن الحقيقة، وملابس لا تمت للواقع بصلة، ولا يخلوا الأمر إلَّا من القليل الذين حاولوا واجتهدوا في أن يقدموا صورة ظاهرها يبدو قريب الصلة بالصعيد، لكن باطنها يبتعد مسافة ليست بالقصيرة عن ذلك المجتمع الذي لا يزال يحتفظ بأسرارة بعيداً ملتفاً حول الوادي يتخذ من النيل شريان حياة، ومن الصحراء ستارة حاجبة لكل أسراره وغموضه.

والحقيقة مع أن الكثير من أبناء الصعيد، بل نستطيع أن نقول الملايين على مر سنوات طويلة وإلى الآن في هجرة دائمة، وزحف مستمر على الدلتا، ومدن القناة والقاهرة والإسكندرية، ومعظمهم بدأ في تلك المدن من الصفر حتى كون إمبراطورية هائلة في مجالات كالتجارة والمقاولات وغيرهما، كذلك فإن الكثير منهم اتجه إلى الدول العربية بحثًا عن الرزق، لكنِّي أكاد أجزم أنَّه

لا يوجد أحد ولد في الصعيد وهاجر إلا وتأتي عليه لحظات يحن فيها إلى تلك الأرض، وتمر عليه الذكريات كوميض برق خاطف يشعل قلبه اِشتياق لتلك الأيام الخوالي مع الأهل والأصدقاء (وهنا تجدر بنا الإشارة أن يد الإهمال والتقصير الذي يبدو متعمدًا من جميع الحكومات التي مرت في تاريخ مصر المعاصر هي السبب الأساسي في جعل الصعيد بلا أي تنمية حقيقية تذكر وقانون رادع ومن ثمَّ هجرة أبنائه ودائرة لا تنتهي من المشكلات).

وهكذا فإن نجع الهوارة مثل الآلاف من النجوع والقرى الأخرى التي عانت ولا زالت من الفقر المدقع الذي يلتهم طيبة، ونقاء القلب ويصنع الغل والحقد والكراهية وتطفوا على السطح مفاهيم كالثأر والانتقام وتخفت أي نبرة تسامح تدعو إلى القضاء على هذه الظاهرة.

كان نجع الهوارة في ذلك الوقت قرية تبدو بدائية ليست بالكبيرة لكنها أيضًا ليست بالصغيرة تتكون من عدة عائلات وطبقات اجتماعية أهمهم عائلة العمارنة الذي ينحدر منها عمران شيخ البلد، وعائلة عبد الفضيل، وهاتان العائلاتان يصنفان من أكبر عائلات النجع والهوارة ذات الأصل والحسب والنسب، وعائلة السوالم التي ينحدر منها حمدان، ورغم الثراء الذي تنعم به هذة العائلة، لكنها تصنف في مرتبة أقل ويطلق على أبنائها في النجع لفظ فلاحين البلد، ونحن هنا نحاول قدر الإمكان أن نضع مرآة

تعكس عادات وتقاليد أبنائها ،ولا نعرف السبب الحقيقي الذي يمكن أن يفضل إنسان على إنسان، وعائلة على أخرى، لكن ما نستطيع أن نقوله دون تدخل أنها للأسف حقيقة، وأمر واقع.

بعض منازل قرية نجع الهوارة بنيت على الطراز الحديث، تتكون من دورين أو ثلاث، وتمثل شرفة عندما تقف أعلاها ترى معظم منازل القرية المبنية بالطين والبوص وجريد النخل، التي تقف في خضوع واستسلام تام للأعين التي تتلصص عليها، وعلى من يقطنها من علية القوم، تلك القرية واحدة من القرى التي يحتضنها الجبل، ويعطي لأبنائها صلابة وقسوة وطبيعة خاصة، تحمل بين طياتها متناقضات عدة، طيبة، سذاجة، قسوة، ذكاء.

كم أود لو وضعت القارئ في مسرح أحداث الرواية، وجعلتهُ يتجول في طروقات ودروب القرية الضيقة والمتعرجة، وكأنَّها بنيت على أثر خطوط مرسومة نتيجة زحف الثعابين.

أول شيء يقابلك قبل أن تخطو قدمك داخل النجع، الترعة التي تمثل شريان حياة هام، كذلك لا بد وأن تمر على الحاجر (طريق ضيق موازي للطريق الأسفلتي الرئيسي الذي يربط القرى ببعضها) ودوار الشيخ عمران (شيخ البلد) أمَّا معظم المنازل عندما تم إنشائها بطريقة ما تم فصل منازل الهوارة عن منازل الفلاحين، الشيء الذي يجب أن نذكره رغم كثرة عدد الفلاحين وأحوالهم المادية الجيدة لحد ما، لكنهم لسبب ما لا نستطيع

معرفته مستضعفون في النجع، يتوارثون هذا الاستضعاف من جيل إلى جيل، وكأنه ختم وعلامة مميزة تحفر في الجلد، وجينات تنقل من الآباء إلى الأبناء.

النجع يوجد به عدد قليل من الجوامع، أكبرهم الجامع العمري كذلك فإنَّه الوحيد الذي يمتلك مأذنة، أمامه الشيخ عبد التواب، وقد ورث الأمامة عن أبيه، وعندما كان الجامع زاوية صغيرة مبني بالطين وقبل أن تقترب منه يد الزمن ويعاد بناؤه كليًّا بالجهود الذاتية لأبناء النجع، وبما أن النجع لا توجد به محلات كثيرة، فقد اِتخذ بعض بائعي الخضار والفاكهة الساحة التي أمامه مكانًا لعرض بضائعهم، حيث يقومون بوضع البضاعة داخل مشنة كبيرة في تناسق تام، ويرشون المياة كل عصرية وهي عادة يتبوعونها لترطيب الجو وإخماد الأتربة، حتَّى لا تثار من أي رياح قد تهب فجأة، وقد تختلف تلك الأجواء عندما يحل شهر رمضان، حيث ترى بائعي الكنافة والقطايف والعرق سوس والتمر هندي وتكالب الأطفال عليهم للشراء قبيل آذان المغرب، رغم بساطتها وقد تبدو عادية بالنسبة للكثير، لكننا لا نستطيع أن نصف كم السعادة التي يكون عليها الأطفال في ذاك الوقت.

****

الوقت لا يزال في الصباح الباكر ضوء الشمس ينسج أشعته حول النجع، ونسمات هواء صافية تهب بين الحين والآخر، تتمايل

معها أعواد القصب على ضفاف الترعة ذات المياه الراكدة واللون الأخضر.
أخذ حمدان عبد الكريم يسير على الطريق الأسفلتي، ومن وقت لآخر يرفع يدة يُحييِّ بعض المارة الذين يردون له التحية في ترحاب وود، وغمره نهر من السعادة وهز رأسه في تأثر واضح، عندما رأى بعض الأطفال الذين يلعبون، ويركضون بين عيدان القصب التي تحيط بالطريق، وتذكر الأيام الخوالي عندما كان طفل يلهو مع بعض أقرانه، كالعفاريت غير عابثين بالحكايات التي تقص عن المارد الذي ينتظر من يتجرأ ويقتحم أعواد القصب.
لا يزال يتذكر حينما كان يمشي بمفرده بينها يرتجف قلبه من شدة الخوف، ويكاد يموت رعبًا عندما يسمع أصوات تنادي عليه من الاتجاهات كافة، شيء واحد فقط كان يجعله يكرر التجربة رغم ما يعانيه في كل مرة من رعب. . . ضحى. . . ابتسم حينما تذكر ما كانا يفعلانه سويًّا وهما يركضان في سعادة ومرح وبراءة، عندما تتعثر في عيدان القصب، وتتطلب منه أن يدعك لها ساقها، ويحمر وجهه خجلًا، حينما يمسك ساقها محاولًا في تلعثم فعل ذلك، أخذ يتم تم. . . يا لها من أيام.
استفاق على صوت بعض الأجريهْ (العمال) الذين يعملون عندهم في الأرض وهم يصيحون (حمدان وصل يا حاج عبد الكريم) وقد أقبلوا عليه يصافحونه ويعانقونه، وراح بعض الأطفال يركضون

إلى دار الحاج عبد الكريم، وما هي إلَّا لحظات حتَّى كانت أمه الحاجة وهيبة تقف أمام الدار، وراحت تطلق الزغاريد ومن ثمَّ انطلق أخيه الأصغر إبراهيم يهرول مسرعًا كطلقلة خارجة من فوهة بندقية ألية أخذت طريقها للهدف، وقد ارتدى طاقية صوف وجلباب بلدي واسع الأكمام قصير يظهر رجليه الصغيرة حافي القدمين في مشهد مثير للضحك، وفي ثواني كان أمام حمدان الذي وضع الحقيبة جانبًا ومن ثمَّ اِحتضنه في مزيد من الحب والحنان.

****

الحاج عبد الكريم كبير عائلة السوالم، ورغم ثراء بعض أفراد هذة العائلة، وحيازتهم للأرض الزراعية والكثير من شبابها على مؤهلات عليا، لكن مع ذلك فإنَّهم يعانون من اضطهاد واستضعاف بدا ملحوظ وقد يرجع ذلك لسببين الأول: لأنَّها تعتبر عائلة دخيلة على النجع حيث جاء سالم الذي تنسب له هذه العائلة منذ عقود وحيدًا شريدًا، وقرر أن يقيم إقامة دائمة في النجع، ولمْ يتم ذلك إلَّا بعد أن أثبت نفسه وأظهر كفاءة وجدية وأمانة، من خلال تجارته المحدودة في العلف الحيواني، وعندما أراد أن يتزوج لمْ يتجرأ على الذهاب لأحدى العائلات الكبرى، وإنَّما تزوج من العوادل، وهم فلاحين النجع المعدمين، لذلك فإن أفراد عائلة السوالم أغنياء المال فقراء المكانة والمنزلة، حيث يتوارثونها من جيل إلى جيل، وهو

ما صنع لديهم عقدة وشعور بالنقص، ما يفسر لنا أن غالبية رجال عائلة السوالم يظهرون رجولة مصطنعة وقسوة مفرطة، في التعامل مع زوجاتهم وضربهن ضربًا مبرحًا، يصل لحد الضرب بالشومة (عصا غليظة يبلغ طولها متر، أو أكثر قليلًا، دائمًا ما تكون في أيديهم عند الخروج، وذلك للدفاع عن أنفسم ضد أي خطر وحماية من الكلاب الشرسة التي يربيها الأهالي) ويستثنى من ذلك عدد قليل من بينهم الحاج عبد الكريم، الذي يتمتع بجانب كبير من الطيبة والحنية والود لزوجته الحاجة وهيبة، بالإضافة إلى الإنسانية والكرم الذي يعرف به في النجع.

على العكس تمامًا عائلة عبد الفضيل ذات المكانة والصيت، يتمتع أفرادها بعنجهية مفرطة، الشيء الذي يجعل العائلات الأخرى تتحاشى دائمًا التشاحن معهم، وقتد تعتقد أن السبب الأساسي لوجودهم في الحياة، العراك والبلطجة والتباهي بأصلهم، وإنَّهم أولاد فلان ومن نسل علان ذو الحسب والنسب، وقد تسخر في نفسك وتتعجب عندما ترى بعض منازلهم متواضعة الأثاث، المبنية بالطين، لكن ما الذي يجعل عائلة عبد الفضيل لها هذه المكانة والهيبة، يمكن يكون ذلك لعدة أسباب، السبب الأول والأساسي أن عدد غير قليل من أفرادها بلطجية، والسبب الثاني أن من بينهم رسلان اليد اليمنى لعبد الصبور الممثل الدائم للنجع، والمركز في مجلس النواب وأكبر تاجر سلاح في المحافظة، أمَّا السبب الأخير

إنَّهم يعتبرون أبناء عمومة عائلة العمارنة أكبر عائلة في النجع والتي ينحدر منها عمران هريدي شيخ البلد المتحكم في زمامها الآمر الناهي، يهابه الجميع، وكلمته كالسيف مسلط على رقبة كل من في النجع، أحيانًا كثيرة يبدو حاسمًا عادلًا، لكن أحيانًا أخرى يتملكه الهوى، وتأخذه العصبية والقبلية ويكون عامل أساسي محفز على الظلم، عندما تنظر إلى وجهه الأسمر الممتلئ وعيناه الواسعة اللامعة وشاربه الكثيف وجسده الطويل وصدره العريض تتملكك الرهبة، كما أنَّه يمتلك شخصية قويَّة كل هذه المقومات منحته هيبة ووقار يحسده عليها الكثيرين، بالإضافة إلى الأموال والأراضي التي يمتلكها، حيث أنَّه يمتلك خمسون فدان وخمسة منازل غير الدوار الكبير هائل المساحة، الذي يقترب من الربع فدان جزء منه بني على الطراز الحديث والأسمنت المسلح، يقف شامخ بأدواره الخمس في مدخل البلد محاط بسور مرتفع تتوسطه بوابة واسعة، حتَّى أن أهل النجع كثيرًا ما يتفاخرون به أمام أبناء القرى الأخرى، كذلك فإنَّه يتاجر في السماد والسلع التموينية.

الشيخ عمران متزوج من امرأتان، الحاجة نجية ولديه منها ثلاثة أولاد وبنت، هريدى ابنه الكبير يده اليُمْنَى وسيفه الذي يسلطه على رقبة من يريد، حيث أنَّه يتمتع بقوة جسديَّة وملامح قاسية وشخصية صارمة، متزوج حديثًا من بدرية اِبنة عمه عبد الصبور

نائب المركز الدائم في مجلس الشعب، لم يكمل تعليمه كالكثير من شباب النجع.
كمال الابن الثاني (دنجوان النجع) البصباص يقضي معظم وقته في التخطيط لقضاء ليلة حمراء، حاصل على بَكالوريوس تربية وقد ساهم دخوله الجامعة في تكوين شخصيته المستهترة، غير قادرعلى تحمل المسؤلية، عانى الشيخ عمران كثيرًا معه حتَّى يكبح جماح طيشه، لكنَّها باءت جميعها بالفشل والحاجة نجية عامل أساسي في ذلك، إنَّها البنك الذي يدعمه بالأموال دون حساب، وفتح لديها حساب جاري من الحيل، واِقتناص المزيد من الأموال واِنفاقها على مزاجه وسهراته.
أمير أصغر أبنائه عشر سنوات، من نعيمة زوجته الثانية (دلوعة العائلة المشاكس المناكف) يدهشك ذكاؤه وخفة دمه، وقد ترى لماضته جلية واضحة في تعامله مع كمال الذي يعاند معه وكأنَّهما في نفس السن، حتَّى أن أمير كثيرًا ما يسخر من كمال ويتعامل معه على أنَّه أصغر منه.
فايزة ابنته الوحيدة من نجية جميلة الوجه ذات جسد فائر متناسق صدر مكتنز راسخ سمراء البشرة، وكما يقال أن السمار نصف الجمال، فحقًا هذا المثل ينطبق تمامًا على فايزة، التي تشعر بجمالها وسحرها الذي جعل منها فتاة أحلام الكثير من الشباب، وليس لذلك فقط؛ بل لأنَّها ذات مال وجمال وحسب ونسب،

لكن من ذاك الذي يستحق أن ينال هذا الشرف؟ عندما تشاهد المسلسلات تحلم وتنتظر من يسمعها كلام يطرب قلبها ويثني على جمالها وسحرها، أبدًا لم تجد هذا الشاب في النجع.

صفية ابنته الثانية من زوجته جملات، ممتلئة الجسد مِمَّا جعلهم يطلقون عليها (الدبة)!

****

٢

في قبلات محمومة راح حمدان يقبل في أفراد أسرته، فقد طال الغياب، وزاد الاشتياق، بعد أن ظل طيلة نصف العام الدراسي الثاني كاملًا، لمْ يتخللها أي زيارة ولمْ يكنْ يعتاد على ذلك، فقد كانت هذة السنة النهائية له في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة، إنَّه يريد أن يصبح سفيرًا ولما لا ولديه الكثير من المقومات ما تؤهله لذلك، فهو لبق غني حسن السير والسلوك ولا يوجد شيء يخجل منه، التعليم لمْ يكنْ يومًا هدف لكثير من شباب وعائلات النجع، لكن الحاج عبد الكريم آمن أنَّه من الممكن أن يأتي التعليم بالذي لمْ تأتِ به الأموال وعلو مكانتهم، ومن الممكن أن يكون محق في ذلك، عندما يصبح أحد أبناء العائلة سفير بالتأكيد سوف يتغير الوضع، لكن هل من الممكن أن يحدث ذلك؟!

من العادات التي تتبعها النساء سواء أكانت الزوجات أو الأمهات، القيام بتجهيز (أكله معتبرة)، وتسبيك كل ما لذ وطاب احتفالًا بقدوم الغائب وكأنَّه عيد، ويقيمون احتفاليتهم الخاصة، ويتفق

في هذه العادة الجميع الغني والفقير كل منهم قدر استطاعته.
عندما تنظر إليها تسرك بابتساماتها الصافية الرقيقة ووجهها الصبوح المشرق، تتمنى أن تقضي ما تبقى من عمرك جانبها، إنَّها نسمة، وهي حقًا كذلك، عندما تراها تشعر كأنَّها نسمة باردة في صيف حار تنعش قلبك الذي يخفق طالبًا المزيد.
كانت نسمة ابنه عم حمدان، وقد راحت تنتظر قدوم حمدان في لهفة وشغف، حتَّى وإن لمْ تستطِع أن تفصح عن ذلك، واختلقت حجة أنَّها تريد أن تساعد الحاجة وهيبة في صنع الخبز، حتَّى تلتقي بالحبيب الذي لطالما تمنته، ولما لا، وهو ابن عمها وفتى أحلامها، مشتاقة لنظرة من عينيه، وللمسه من يديه، عندما يصافحها تتمنى أن تذوب في حضنه، وراحت تختلس النظرات، وهو جالس على الدكة (تشبه الكنبة لكنَّها أعرض قليلًا ولها سنادة للظهر) في المندرة، والفرحة تكاد تقفز من مقلتيها، كابتة قلبها دافنة حبها، وعشقها داخلها، وهو يبتسم وقد تجمع حوله كل من في الدار.
- كيف حالك يا نسمة؟
في سعادة وابتسامة كلها حياء!
- الحمد لله كيف حالك أنت يا حمدان؟
في سعادة كاسرة حاجز الحياء، والخجل قالت الحاجة وهيبة:
- نسمة جاءت اليوم من الصباح كي تساعدني في الطهو.

وقد وجهت نظرها إلى حمدان:
- ربنا يرزقها ابن الحلال الذي يستحقها.
في خجل!
- ربنا يخليكِ يا مرات عمي.
حمدان:
- نسمة تستحق كل خير!
الحاج عبد الكريم:
- ماذا فعلت في كليتك؟
- الحمد لله يا أبويا كل شيء تمام وإن شاء الله أخذ البَكالوريوس بتقدير وأتعين في الخارجية.
- إن شاء الله يا بني أملنا في ربنا كبير.
- لكن الموضوع يحتاج إلى الواسطة.
الحاجة وهيبة:
- لا يوجد من هو أفضل منك كي يأخذوه.
حمدان:
- يا أمي هذه ليست عروسة.
- يا بني نحن لسنا محتاجين أنت تزرع الأرض وترعى أمورنا.
- إن شاء الله يا أمي
أثناء ذلك كانت نسمة بدأت في تجهيز الطعام، وقد نهضت الحاجة وهيبة كي تساعدها، وما هي إلَّا لحظات، حتَّى دخلت

وهي تحمل صينية كبيرة وضع عليها (المرق ورقاق وحمام محشي بالفريك والويكا والعيش الشمسي) لتضعها على طبلية وسط المندرة، والتف حولها الجميع.

****

يوم السبت ينصب فيه السوق في الحاجر منذ سنوات طويلة، حيث يعتبر المتنفس الوحيد للبيع، والشراء لدى أهالي النجع، يمتطون الحمير وخلفهم أبنائهم، كذلك بعض المزارعين الذين يخرجون مبكرًا للذهاب إلى الأرض وسقاية زرعهم، يسوقون مواشيهم التي صارت تنتظر نسمات الصباح، حتَّى تتحرر من قيود الوتد، وتنعم بوقتها بين الحشائش، تأكل وترعى وسط البراح.

من بين الباحثين عن الرزق الغير حلال، شاب لا يتعدى الخامسة والثلاثون عامًا، قصير القامة أكلح الوجه شاربه يتدلى حتَّى ذقنه، أسنانه يعتليها الصدأ حيث تحولت إلى اللون البني، إنَّه عسران عبد الفضيل، البلطجي الذي يحمل على أكتافه مهمة العكننة على جميع المستضعفين في القرية، وها هو يمسك بخروف ويجري به في سرعة غير عابء بمن حوله، سرعان ما يظهر رجل يجري خلفه في خطوات متلعثمة خجولة، ويقول في لهجة أقرب إلى الاستعطاف، ويكاد يلطم على خديه لتقع العمة من على رأسه، ومن ثمَّ يضحك المارة وهم يهزون رؤوسهم.

- الخروف يا عسران.

وتنطلق الههمات بين المارة ليقول بعضهم:
- خروف الراجل يا عسران. . . حرام عليك!
لكن عسران لمْ يتوقفْ وشق طريقه بين أعواد الذرة الكثيفة، والابتسامة تعلو شفتيه وتظهر أسنانه، حتَّى تظن أنَّه يضحك وكأنَّه ممثل كوميدي فرح بعد أداء دورة، ويشاهد تصفيق الجمهور، وقد اختفى ولم يجرؤ الرجل أن يدخل وراءة، حتَّى لا يكون ركضه خلف الخروف مقبرة تحويه، كما احتوت ذمه عسران الخروف.
بين أعواد الذرة كان ينتظر عسران رجل ضخم، حينما رأه قال له وقد انبسطت أساريره:
- عفارم عليك
في نشوة وزهو فرح بنفسه!
- خروف سمين من أولاد الكلب الفلاحين. . .
قهقة الرجل وأخرج حافظته الكبيرة من جيب السدير ثمَّ أخرج نقود.
- خذ ٥٠٠ جنيه.
- يا معلم يساوي أكثر من ١٠٠٠.
- نعم لكن إذا كان لك أنت تعرف إن ذهبت إلى السوق لن يشتريه أحد منك.
وهو يهز رأسه في عدم رضا.

- من يد ما نعدمها يا معلم!

****

كان عدلي في شبابه (زلنطحي) لا يعمل، ووجد مبتغاه في التسكع والتنقل بين منازل أقاربه، يقتات على بقايا أكلهم، وينال الكثير من التهكم ولوى الشفايف في قرف وكأنَّه أجرب، ومع مرور الوقت تكونت لديه طبقة عازلة من التبلد واللاشعور، وصار أي شيء يفعله أقاربه من عدم الترحيب به وبزيارته، لا ينال اهتمامه ولا يتوقف أمامه كثيرًا، واستحق منهم وبجدارة لقب (بارد نطع)، ورغم ذلك فإن عدلي متعلم بل إنَّه حاصل على ليسانس حقوق، لكن ما الذي جعله يتأقلم ويرتاح مع حياة التشرد، إنَّه أبيه الذي تزوج ثلاث نساء، وقد رزق من كل واحدة منهن أبناء، حتَّى صار عددهم سبعة عشر ولدًا وبنت، حينما يبلغ الذكر عشرون عام أو عندما ينتهي من دراسته يتم فورًا وبدون مناقشة طرده من المنزل لكى يعتمد على نفسه، ولا يحتفظ إلا بأبنائه القصر من الذكور، وطبيعة الحال لا يفعل ذلك مع الإناث فالأنثى في قاموس أهل النجع (عار) يجب ستره، لا تترك منزل أبيها إلا على بيت زوجها، أو إلى القبر إذا كانت غير متزوجة.

في وقتٍ ما وبعد أن ضاق الجميع ذرعًا من عدلي، اضطر مرغمًا أن يسافر إلى ليبيا كالكثير من الشباب، وبعد أن أمضى فترة ليست بالطويلة كان يقيم فيها مع بعض الشباب البسطاء منعدمي

التعليم من النجع، كان لا يعمل إلا قليلًا، وما يكتسبه بالكاد كان يكفي السجائر والأكل، حينها لمْ يجدْ مفر إلَّا من استعمال ذكاؤه واستغلال هؤلاء التعساء، حيث ادعى أنَّه قد تم سرقة ثلاثة الآف جنيه منه، وأنَّه سوف يقوم بإبلاغ الشرطة وتحت وطأة الجهل والترهيب من السجن انطاعوا له، وجمعوا من بعضهم المبلغ وأعطوه له، وبعد أن أخذ المال رجع مصر، وأعطاه لأحد أفراد عائلة العوادل بالفائض على أن يسدده بعد ستة أشهر ستة الآف، وأخذ عليه إيصالات أمانة، وبعد مرور المدة لمْ يستطِع الرجل السداد، وتمَّ مد المدة ستة أشهر أخرى على أن يسددهم ١٢ ألف، وبعد مُضِيٌّ المدة لمْ يستطِع السداد مرة أخرى، حينها قرر رفع قضية عليه وإبلاغ النيابة، وما كان من أهله إلَّا أن جمعوا مبلغ ١٢ الف حتَّى يتنازل عن القضية، وكانت هذة الأموال نواة للربا التي كون من خلالها عدلي ثروته، حيث أنَّه يقوم بإخراج المال بالفائض، والذي لا يستطيع السداد يحجز على داره، أو أن يجتمع أهله ويسددون له، وها هو يجلس، ومعه أحد الرجال من الفلاحين الذين يريدون اقتراض ١٠ الآف، وبعد أن بصم على العديد من إيصالات الأمانة، أمسك عدلي النقود وقال في لهجة آمرة:

- خذ يا عبد الباسط وبعد سنة من تاريخه تحضر ٢٠ ألف تمام.

وهو يهز رأسه في انطياع، وانكسار.

- ربنا يسهل يا عم عدلي.

****

يعتبر عليٌّ الدميري من بين العديد من الشباب الذين يحلمون بالزواج من فايزة عمران، والظفر بها والنيل من جسدها البض، وأيضًا الاستفادة الكاملة من المكانة التي يحظى بها الشيخ عمران، عوامل اجتمعت لتجع فايزة تعتلي هرم الفتيات في النجع، هي كذلك تدرك ذلك جيدًا لذلك تتصرف على أنَّها برنسيسة، ولماذا لا؟ حيث إنَّها ترى أنَّه لا يوجد من يستحق أن يظفر بها، وينهل من مؤهلاتها الجسدية والمادية.

رغم أن عليٌّ من عائلة العمارنة إلَّا أنَّه ينتمي للفرع الفقير في العائلة، لكن ماذا يفعل في قلبه الذي تعلق بها؟ وصارت هدفًا له، عندما تمر عليه في ذهابها ومجيئها يخفق قلبه، وتتعلق بها عيناه، وقد حان وقت تحقيق هدفه، حيث قرر أن يطلبها للزواج وليكن ما يكون، كان جالس مع أمه، وقال في تردد:

- أريد أن أتزوج يا أمي.

وهي تبتسم!

- هذا ما نتمناه يا بني.

دخل أبيه عليهما وقد أخذ يطقطق بالخرزانة، طرق منتظم على الأرض، لتنهض سريعًا بسيمة زوجته، حيث ساعدته في خلع العباءة ثمَّ طيها، ليقول بعد أن جلس على الدكة إلى جوار عليٌّ.

- في ماذا تتحدثون؟
- علي يريد الزواج.
- منذ وقت وأنا أقول له تزوج ومن التي تريد أن تتزوجها؟
- فايزة بنت الشيخ عمران.
في فرح قالت أمه:
- أحسنت الاختيار يا بني.
أبيه:
- لكن يا بني كنت اخترت واحدة مثلنا.
أمه:
- ونحن ما بنا؟! عليٌّ ابني يشرف أية واحدة.
أبيه:
- لكن أبوها من الصعب أن يوافق.
عليٌّ
- يا أبويا سوف يوافق.
أمه:
- وافق يا دميري حتَّى نفرح.
أبيه:
- المشكلة ليست في الشيخ عمران فقط، لكن البنت مغرورة وأخذت على العز.
عليٌّ:

- يا أبويا أنا اخترت ربنا يبارك فيك توافق.
أبيه:
- تمام يا بني أنت حر ربنا يقدم ما فيه الخير.

****

كان الشيخ عمران يجلس على الدكة في المندرة وأمامه الشيشة وأحجار الفحم، وخادمه سفروت شاب يقترب من عامه العشرون، لكن ذو ملامح طفولية لحد كبير، كذلك فإن عقله أصغر من عمره، يتضح ذلك جليًّا واضحًا من خلال كلامه الذي يبدو غير مفهوم، والتهتهة التي تحدث له عندما ينطق بعض الكلمات، والضحكة البلهاء التي تعلو شفتيه دون أدنى سبب، لا يعرف أحد في النجع أهله، حيث أنَّه وضع على باب جامع في ليلية شتوية، ليجده أمام الجامع الشيخ عبد التواب، وعندما احتار أهل النجع فيه تطوع الشيخ عمران برعايته، ومن حينها وهو لا يفارق الدوار والمندرة، فهو الخادم المطيع الذي يعتمد عليه الشيخ عمران في تلبية طلباته، خاصة تحضير الشيشة وفي آخر الليل ينام في أي ركن من المندرة على الأرض، ينكمش كالقنفد من البرد في جلبابه الرث، الذي يشاركه الحرمان وسنوات عمره البائسة، يجعل من حذائه مخدة والأرض مرتبة، يطير فرحًا كطفل صغير أعجبته لعبة أمسك بها لأول مرة، عندما تعطي له الحاجة نجية بطانية قديمة مهترئة، أو كسرة خبز بها قطعة جبن.

يقضي الشيخ عمران معظم وقته سواء بالليل، أو بالنهار في المندرة، يتناول الإفطار ثمَّ يجلس يدخن أحجار الشيشة ويستقبل أهالي النجع أو الغرباء، وقد بدا كأنَّه قاضي يجلس في ديوان المظالم، أمَّا في الليل ينقلب الحال تمامًا، حيث يأتي إليه كُبارات النجع ووجهائه يجلسون يدخنون، ويطلقون الضحكات.

-جهزت يا ولد الشيشة والَّا مثل كل مرة-.

قالها الشيخ عمران بعد أن رفص سفروت بقدمه في بطنه، وأطلق على أثرها توجعات متواصلة، وأخذ يقفز ثمَّ يتلوى وقد أمسك بالماشة وأخذ يدوس على الفحم، ثمَّ ينفخ في الحجر نفخات متقطعة، حيث يجلس الشيخ عمران واضعًا رجل على الدكة ورجل بالأسفل، رجع ظهره للوراء وأمسك باللاي واضعًا أصبعه على المبسم ثمَّ أخذ نفس أتبعه نوبة سعال متقطع، وكأنَّه مقطع يقدمه في بداية كل وصلة غناء.

كان هذا لا بد أن يتم بداية تدخين الشيشة، وسريعًا ما يكيل اللعنات والشتائم لسفروت.

في حدة وصوت جاهوري حاد قال الشيخ عمران:

- منفسة يا بهيم.

في خوف وذعر وصوت متقطع:

- حاضر يا عم الحاج.

أمسك سفروت الفحم المشتعل بيدة وسريعًا وضعه في قصعة

مليئة بالفحم المتوهج، وأخذ يضرب بيده في الهواء محاولًا تبريدها من لسعة الفحم، ثمَّ قلب الحجر رافعًا المعسل من عليه، ووضع حصوة صغيرة ثمَّ المعسل وقطعة كبيرة من الفحم.

أخذ الشيخ عمران نفس ونفخ الدخان لأعلى، ليسمع صوت ينادي عليه.

- شيخ عمران.

- اِتفضل.

دخل رجل نحيل الجسد قصير القامة يضع عمامة تحوي رأسه الصغير.

- كيف حالك يا شيخ عمران؟

-نحمد الله اِجلس يا نجدي.

ثمَّ نادى في صوت عالي.

- الشاي يا ولد.

جرى سفروت مسرعًا إلى الداخل، وجلس نجدي على الدكة الأخرى ونظر لأسفل ثمَّ قال في صوت يغلب عليه الاستعطاف.

- يصح يا عم الشيخ يسرق عسران الخروف في النهار وحضرتك تعلم الظروف.

وهو يهز رأسه في عدم رضا:

- لا يرضيني!

- أنت تعلم إنَّنَا لا نستطيع أن نأخذ من عسران حق، أو باطل.

أخذ الشيخ عمران يهز رأسه، ويبرم طرف شاربه ثمَّ اِتكأ على جانبه الأيمن ليقول في لهجة حاسمًا:

- خروفك يساوي كم يا نجدي؟

-١٥٠٠ جنيه يا شيخ.

- تمام الفلوس سوف تكون عندك اليوم

في فرح، وقد تهللت أساريره!

- ربنا يحفظك يا شيخ عمران.

****

عسران كائن طفيلي يتعايش على سفح أموال الغير، منذ نعومه أظافره كان ولا يزال الفتى المدلل لأبواه، رغم المستوى المتواضع بل والمتدني لهم، حيث كان والده عبد الفضيل عامل يومية (فواعلي) جزء كبير مِمَّا يتحصل عليه يكون في يد عسران الذي بطبيعة الحال ينفقه على الكيف، بداية من السجائر ونهاية بالبانجو والحشيش، عندما تقدم والده في السن وهرم، كان عليه أن يعمل لكنَّه لمْ يفعلْ ولمْ يستمرْ في أي عمل سوى أيام قليلة، وسريعًا ما يتركه، حتَّى وجد ضالته في الخطف والسرقة، التي تعلمها من أمه سعدية.

كان حينها طفل عندما قفز ديك الجيران من أعلى السطح إلى حوش دارهم، وفي لمح البصر رأى أمه تمسك بالديك وتذبحه، ثمَّ تنظفه وتطهيه على الموقد -ينى من الطين على شكل نصف

دائرة ويشعل عن طريق حرق الأخشاب أو الحطب داخله- كان الديك داخل الحلة يسوى، وعسران يشم رائحته، ولعابه يسيل، ليسمع طرق جارتهم على الباب، التي سألت أمه في لهجة استعطاف، وحزن عن الديك الفقيد، وأمه في منتهى البراءة تقول وهي تمصمص الشفاه.

- لو كان قفز عندنا كنا أرسلناه لكم، أمَّا جارتهم تلك البائسة التعسة تدرك وتيقن جيدًا أنَّها تكذب، وقد عبأت رائحة الديك أنفها، لتقول في حسرة والدموع تكاد تقفز من مقلتيها.

- عارفة يا سعدية، اللهي التي أخذته ينزل عليها سم يقطع مصارينها!

ما أن غادرت جارتهم حتَّى قالت سعدية:

- المرأة بتدعو علينا من أجل ديك، وهي عندها حوش كامل مليء بالطيور اللهي يبتليها بوجع بطنها.

قبل آذان المغرب كانت سعدية تحمر الديك في السمن البلدي، وفاحت الريحة وأخذ عسران شهيقًا حتَّى نفذت الريحة إلى خياشيمه، فأخذ يمصمص ويحرك شفتيه في حركة لا إراديَّة.

عندما وضعت الطبلية جلسوا، وأخذ عبد الفضيل يفصص في الديك، ويقول:

- ذنوبة المعفنة تمتلك هذة الديوك دنيا عجيبة.

كانت هذة أول مرة يتذوق فيها عسران طعم الحرام، ويتعلم

السرقة، ويأخذ درس فيها، وتقبل ذلك بكل أريحية، ومن حينها بدأ يمارس السرقة يخطف ديك من هنا وفرخة من هناك، وعندما كبر تعدى الأمر البيضة والفرخة، وصار يسرق أي شيء تطاله يده، لكنَّه لا يسرق أي أحد إنما يختار أشخاص بأعينهم، وفي الغالب يكون هؤلاء من عائلات الفلاحين المستضعفين.

-الكروم- أرض زراعية بها المئات من النخيل، كل عائلة تمتلك حصة تختلف باختلاف وضع العائلة، النصيب الأكبر لعائلتي العمارنة وعبد الفضيل وهكذا.

كان الشيخ عمران يمتلك النصيب الأكبر في أرض الكروم، وفيها ساقية لزراعة الأرض وخص من البوص، كان قد أنشأة منذ زمن، حتَّى يجلس فيه الخفير الذي يقوم بحراسة وسقاية الزرع، وعندما بدأ يتم تبوير أرض الكروم وإهمالها وصارت لا تزرع، صار الخص مهجورًا، حتَّى وجد فيه عسران ورفاقه من صدقاء السوء (أبوزيد، وعنتر، والفار) مكانًا مناسب للسهر يوميًا فيه، يدخنون الحشيش والبانجو والتخطيط للسرقة أو تقسيم الأموال، وكان الشيخ عمران على علم بذلك، لكنَّه لمْ يعرِ الأمر اهتمام، خاصة وإنَّهم دائمًا ما يكونوا في خدمته وتحت الطلب عندما يحتاج إليهم.

كانوا قد أشعلوا النار عن طريق حرق بعض الأخشاب وقوالح الذرة، وذلك للتدفئة كذلك للاستفادة من القوالح لإشعال أحجار البانجو، حيث جلسوا على شكل دائرة حول القصعة، ومن حين

لآخر يمد أحدهم يدية فوق النار، ثمَّ يقوم بدعكمها في بعضهما، حتَّى يشعر بالتدفئة ويمسك بالجوزة -بطرمان زجاج وضع عليه غطاء جلد به فتحتان، أحدهما للحجر، والأخرى يخرج منها بوصة أطول قليل من نصف متر- يأخذ نفس متقطع حتَّى يجعل الجوزة تكركر، ومن حين لآخر يدخلون في نوبة ضحك هستيري لا يعرف لها سبب، وقد نجد أحدهم يقف، ويترنح ضاحكًا حتَّى يقع على الأرض، كذلك فأنَّهم غالبًا ما يقولون المواويل.

الفار أحد أصدقاء عسران وقد سمى بهذا الاسم، حيث كان لا يعيش لأمه أولاد، وعندما ولدته أطلقت عليه الفار كذلك كونه ضئيل الجسد أسود البشرة، وعندما كبر ظل الاسم ملازمًا له، ووضعه على أعتاب السرقة.

بعد نفس طويل من الجوزة قال الفار:

- من مثلك يا عسران الخروف الذي خطفته سمين

وهو يضحك وقد ظهرت أسنانه مقهقهًا مختالًا بنفسه.

- نجدي جرى نصف كيلوا ورائي.

أخذوا يضحكون ويقهقهون في زهو!

ليقول عنتر وهو يعض على شفته السفلى:

- نجدي عنده امرأة إنَّما حكاية.

بعد نفس قال أبوزيد:

- لكن أنت أكلتها يا (فقري).

يضحك الجميع ويقول عسران:
- هو فيه أحد في البلد لمْ يأكلها.

****

تختلف الحياة في النجع اختلاف تام وكليًّا عن المدينة، بعد آذان الفجر يستيقظ الغالبية العظمى من أهالي النجع، النساء يبدأن في تنظيف الدار، وملئ الزيار، ثمَّ ينظفن الزريبة ويتربن تحت المواشي، وحمي الفرن وعجن العيش، كل ذلك يتم شبه يوميًّا، أمَّا الرجل إذا كان يمتلك قطعة أرض، فإنَّه يمتطي حماره ويسحب مواشيه ويذهب إليها كل صباح، وهو بذلك يكون قد أصاب عصفورين بحجر واحد، حيث يقوم بفلاحة الأرض ووتهوية المواشي وتعرضهم لأشعة الشمس، ويعود في الظهيرة تكون زوجته جهزت كل شيء، إن كانت تقوم بتربية الطيور، تذبح أحدهم وتطهيه -غالبًا معظم الأهالى إن لمْ يكنْ جميعهم يقومون بتربية الطيور لا يختلف الأمر سواء كان غني أو فقير- لكن هذا يتم يوم أو اثنان وسط الأسبوع، أمَّا يوم الخميس والسبت فإنَّهم يذهبون إلى السوق لشراء اللحوم البلدية التي تذبح أمام أعينهم.
نحن جميعًا نسمع عن وجود العفاريت، لكن معظمنا الأمر يتوقف عنده على الخيال فقط، لكن هذا مختلف تمامًا في الكثير من قرى الصعيد النائية، حيث أن وجود العفاريت لا يتوقف على الخيال بل أنَّه واقع وتجربة، لا بد أن يمر بها كل من تضعه

الظروف ويتواجد في أماكن وأوقات معينة.
بعد آذان العشاء حيث يغرق النجع في ظلام دامس، ويعم السكون، وتخفت الأصوات، خاصة في الكروم أو على الجسر أو في أطراف البلد، كذلك فإن العفاريت لا تظهر أو (تزاول) إلا أصحاب القلوب الضعيفة، الذين يخافون منهم.
الفار له باع طويل في ظهور العفاريت له، وحدوث مواقف أقرب إلى الكوميديا، حتَّى يكاد يكون ماركة مسجلة لديهم، حينما يكون بمفرده، فإنَّه يكون عامل جاذب ومحفز لنشاطهم.
ها هو عائد بعد قضاء السهرة كالمعتاد مع أصدقاؤه في الخص، يمتطي حماره المغلوب على أمره، الذي كتب عليه مشاركته في خوض تلك التجارب.
كان يدندن ومزاجه رائق، على وجهه ابتسامة بلهاء، يمسك عصا صغيرة يضرب بها الحمار، على أم عنقه حينما يتباطئ، ويحدثه كما يحدث إنسان.
عندما تنظر إليه وقد رفع جلبابه فوق ركبتيه لتظهر رجليه السوداء الرفيعة مثل زوج من الحطب، ويهز فيهما للأمام والخلف في حركة أشبه ببندوال الساعة، في خطوات سريعة يسير الحمار وعليه الفار، الذي بدا أنَّه في دنيا أخرى من أنفاس الحشيش والبانجو، ويدندن -آه يا بهية وخبريني على قتل ياسين- حتَّى رأى رجل يقف على جانب الطريق ليس له ملامح واضحة، وقد أخذ

يشير له، ويقول:
- أين أنت ذاهب يا فار؟
- إلى الدار يا عم الحاج.
- خذنى معك.
- أخذك معي إلى الدار.
يضحك الرجل!
- دار من يا (فقري) خذني إلى داخل البلد.
- اركب يا عم الحاج.
ضرب الفار الحمار بالعصا حتَّى يتوقف ثمَّ ركب الرجل خلفه على مؤخرة الحمار، وقال ضاحكًا:
- دائمًا ركوبتك جميلة يا فار.
كان الحمار بدأ في رفع أذنه وثقلت خطواته، هنا فاق الفار من حالة السطل وأدرك ما يحدث، وقال، وهو يرتجف مستعطفًا:
- أنتم لا تتركوني في حالي؟!
- سير على طول.
- حاضر.
مرت الدقائق كالدهر على الفار والحمار الذي شعر من البداية بما يحدث، وفي مدخل الدار قال الرجل:
- قف هنا.
نزل الرجل ثمَّ وقف أمام الحمار ثمَّ قال:

- انظر.
ما أن نظر الفار إلى الرجل الذي أخذ يتطاول شيئًا فشيئًا، وأخذ يضحك في صوت عالي حتَّى بدا في طول عمارة، وارتعش الفار وقال وهو يصرخ بطريقة هستريَّة:
- الحقوني. . . الحقوني. . . عفريت. . . عفريت!
كذلك فإن الحمار أخذ ينهق في صوت عالي وكأنَّه يستغيث.

****

٣

في معظم القرى بل والمحافظات، نجد ما يسمى بالمقام (مقام الشيخ فلان أو علان) وفي الغالب يتواجد المقام المذكور داخل الجامع أو يكون في حجرة مجاورة له إلَّا فيما ندر، لكن هل تلك المقامات تحوي أسفلها أناس طيبون أو مبروكين ولهم كرامات، أو ذو تقوى وصلاح حقيقي، لا ندري أو نستطيع أن نجزم بشيء.

نجع الهوارة يحوي في أحد أطرافه، في قلب صحراء مقفهرة (الشيخ شعبان) لكن من شعبان هذا؟ وما قصته؟ لا أحد يعلم، لكنَّها حقيقة عاش فيها الأهالي سنوات طويلة ومديدة، لكن الأمر مختلف في المركز أو عاصمة المحافظة، حيث لا يتواجد ضهير صحراوي، فإن في الغالب تكون المقامات داخل محيط سكني، وهو ما ينطبق تمامًا على (سيدي المجذوب) ولمن لا يعلم فإن كلمة مجذوب في اللهجة الصعيدي تعني المجنون، لكن هل هذا يعقل مجنون له مقام ويدعى سيدي؟ هذا ما حدث، المهم أن هذا المجذوب يقام له مولد سنوي، لمدة عشرة أيام كاملة في الحي الذى يزين بالأعلام الملونة التي يغلب عليها اللون الأخضر

المزينة بالآيات القرآنية والله أكبر ولا إله إلا الله محمد رسول الله، والخيام التي تنتشر هنا وهناك.
كان من عادات كمال الابن الثاني للشيخ عمران، ذو العشرون عام وصديقه بكري اِبن الحاج عبد الصبور عضو مجلس الشعب، أن يذهبا إلى مولد سيدي المجذوب كل سنة، لكن ما الشيء الذي من الممكن أن يستفيده هذان الشابان من مولد لا يحوي أكثر من (مراجيح) متهالكة، أو من حلقات الذكر أو من العربات الخشبية الصغيرة، التي تحوي قدرًا لكن ليس قدر فول مدمس إنَّما الفول النابت والبليلة، أمَّا أن أنفسهم تشتهي أكل شيء من المسمط، حيث الفشة والطحال والحلويات والكوارع والبهاريز والدسم، الذي يسيل له اللعاب، والقزان الذي يتصاعد منه البخار محدثًا رائحة يطرب لها جميع من في المولد، لكن في الحقيقة ليس هذا أو ذاك، إنَّما ما كان يدعوهما إلى الذهاب للمولد (زبيدة الغزية) التي ترقص في المولد ولها سيط واسع، وقد سمع كمال عنها كثيرًا، وأخيرًا لب نداء الحظ كما يقول، ها هما يشقان طريقهما بين الزحام الشديد، حيث الناس الذين اصطفوا في صفوف للذكر، مرددين في صوت موحد -الله حي. . . الله حي- مصحوبًا بالترنح يمينًا ويسارًا في حركة شبه ألية، ليقول كمال وهو يضرب كف على كف في توتر وفقدان صبر:
- أين خيمة زبيدة؟

- في آخر المولد لكن بعد أن نأكل لقمة في مسمط شيحه.
أخذ كمال ينظر إلى الأطفال الذين يتقاذفون إلى الأمام والخلف في المراجيح، والبعض الآخر الذي يجلس في مربع خشبي في مرجيحة تدور حول نفسها، وإلى الرجل الذي يرتدي جلباب رث وقد أمسك بدف وأخذ يقرع فيه بقوة، كذلك إلى خيمة صغيرة، وقد تجمع حولها الأطفال يشاهدون الأراجوز، ومالبثا أن أفاق على صوت بكري الذي قال:
- وصلنا عند شيحه اِجلس.
جلسا على دكة متهالكة أمامهم ترابيزة لا تقل تهالك، وأحذ كمال يهز رأسه متعجبًا عندما نظر إلى شيحه بجسده الثمين، وقد رفع جلبابه وربطه في وسطه، وأمامه قزان كبير به الكوارع وصينية بها الحلويات، وقد علق في العربة الحلويات والفشة والطحال، وبين لحظة وأخرى يقطع منهم، ويضع في الصينية ويقلب، وينادي بأعلى صوت في حدة (واد يا برص) وسريعًا ما يكون البرص يقف أمامه، وفي خفة يتناول البرص أطباق صغيرة ثمَّ يضعها أمام أحد الزبائن، ليقول بكري:
- طلبين خصوصي يا معلم شيحه.
في ترحاب وقد تهللت أساريره:
- عينيا يا معلم بكري أنت شرفتنا والله.
نظر كماال إلى بكري في غيظ ثمَّ قال:

- ما هذة القذارة يا عم؟
- لماذا تقول ذلك؟
-انظر إلى الرجل والصينية القذرة التي أمامه والولد الذي يقرف وشعرة مثل القنفد.
في حماس، وضحك!
- لا تحكم إلَّا بعد أن تأكل صبرك.
وبالفعل راح المعلم شيحه يضع الأطباق بنفسه، ويقول في ترحاب:
- يا مرحب بالبهوات.
وضعت الطلبات أمامهما وأخذ بكري يأكل في نهم، ولمْ يجدْ كمال مفر إلَّا أن يأكل، وسرعان ما راق له المذاق.
بعد التهام كل ما أمامهما من حلويات وفشة وطحال ولحمة رأس، وأمسك بكري بالكوز البلاستك، الذي تلتصق به طبقة لا بأس بها من الأوساخ، ليرفعه إلى فمه ولمْ ينزله إلَّا فارغًا.
غادر الاثنان مسمط شيحه بعد أن تجشأ، ودفع كمال الحساب مع أعطاء بقشيش كبير لشيحه، الذي تهللت أساريره من السعادة كطفل صغير أخذ العيدية، مودعهما في ترحاب مبالغ.
مُضِيَ في طريقهما إلى خيمة زبيدة، وما أن وصلاها حيث بدت ضخمة في الأمام وضعت صورة كبيرة لها ببدلة الرقص، يقف على الباب رجل ضخم الجثة يأخذ النقود ويدخل الزبائن، وما لبث أن أخرج بكري النقود وأعطاها للرجل، ليدخلا وقد بدا المكان

كمسرح صغير، حيث المقاعد الخشبية التي وضعت في صفوف، أمامهم خشبة المسرح وفي الجانب ستارة وباب صغير، يقف أمامه رجل يرتدي بنطلون وقميص تبدو عليه مظاهر الإجرام.

بعد أن جلسا أخرج كمال علبة السجائر، وأعطى سيجارة لبكري الذي أشعلها ونفخ الدخان لأعلى، وقد بدا الدخان ينتشر في الخمية، حيث كان معظم المتواجدين يفعلون نفس الشيء وقد غلب عليهم التعجل واللهفة، بعد دقائق امتلأت الخيمة، وخرج ثلاثة أفراد أحدهم يمسك بالطبلة والثاني بالدف والثالث بالناي ووقفوا في آخر الخشبة، ثمَّ بدأوا بالعزف والطبل لتخرج زبيدة في قوامها الرشيق، مرتدية بدلة رقص حمراء مزركشة بالترتر، وتصعد على خشبة المسرح، وأخذ الحضور في التصفيق وراحوا ينظرون إلى وجهها الأبيض المتورد وشعرها الأسود الناعم الذي ينسدل على كتفيها، ونهديها كتفاحتان شهيتان ينبضان بالحيوية ومؤخرة مفعمة بالحرارة.

أخذت ترقص وتتمايل في خفة وتدور بعينيها بين الزبائن، الذين أخذوا يصفقون، وقد أشعلت غرائزهم واحمرت أذنهم في شهوة مطلقة وابتسمت حينما وقعت عيناها على بكري الذي بادلها الابتسامة ولمعت عيناها، وانتفخ صدره في زهو، وأخذ يبرم في شاربه في نشوة، وأيضًا لفت كمال انتباه زبيدة، حيث بدت عليه مظاهر النعمة، وقد أخذ ينظر إليها في نهم، ويمرر أصبعه على

طرف شاربه، لتبتسم له ابتسامة رقيقة، مِمَّا جعله يخرج حافظته الممتلئة بالنقود، لينظر له جميع الزبائن ما بين الحسرة والطمع، ثمَّ أمسك ورقة بمئتا جنيه ودفسها في صدرها.

****

حينما تنظر إلى الشيخ عمران، شيء ما لا تعرفه يجعلك تنظر إليه في تبجيل واحترام وتقدير، يمتلك شخصيَّة قويَّة وهيبة فطرية، تعبيرات وجهه دائمًا ما تكون جديَّة، ونادرًا ما تراه يبتسم أو يضحك، لكن هل هذا يكون أيضًا داخل الدار أو في غرفة النوم؟ لو رأيته أمام زوجتيه أم الأولاد الحاجة نجية أو زوجته الثانية جملات، نستطيع أن نجزم أيضًا، عندما يضع قدمه داخل الدار، حتَّى يدب الذعر والخوف في قلوب الجميع، بمن فيهم زوجتيه، وأبنائه الذكور والإناث، وكأنَّهم مجموعة موظفين صغار دخل عليهم فجأة صاحب العمل.

إنَّه الآمر الناهي لا يجادله أحد أو يرد له كلمة، ولا يراجع في قرار حتَّى وإن كان خطأ.

دلف الشيخ عمران إلى داخل الدار، حيث قام بدفع الباب بالخرازانة، ودخل في خطوات متئدة ونادى في صوت أجش جاهوري (يا ولد).

كانت زوجتيه يقمن بطهو الطعام وتجهيز الخبيز، وهريدي يجلس على الدكة في حالة استرخاء، متكأ على جانبه، والحاجة

نجيبة جالسة على مقعد خشبي صغير أمام الموقد تقلب في المرق، والبخار يتصاعد من الحلة إلى الفضاء، مرتدية جلبية وتربط رأسها بطرحة سوداء، أمَّا جملات تمسك برغفان العيش الشمسي وتضعهم في المشنة، وقد ارتدت جلبية حمراء بها ورد، وعَصبة تشبة الطرحة لكن بها ترتر، أشياء على هيئة ورد مزركش، وتظهر ساقيها الناعمتان الشهيتان من الجلبية.
سريعًا جرت جملات نحو الشيخ عمران، وخلعته العباءة وقامت بطيها، وبعد أن جلس قامت بمساعدته في خلع الحذاء، وهو ينظر إليها في شغف، ثمَّ قال لهريدى الذى اعتدل في جلسته:
- ما الأخبار؟
- تمام يا أبي.
- استلمت حصة الكيماوي كلها
- نعم جاءت اليوم ودخلت المخازن.
- والدقيق؟
-لا تخاف كل شيء تمام.
هزَّ عمران رأسه ارتياحًا، أثناء ذلك كانت جملات أتت بالطبلية ووضعتها أمامهما، ثمَّ بالمرق والرقاق واللحوم، وما لبثا أن نزل عمران وهريدى ليأكلا، أمَّا نجية فقد جلست على الأرض بالقرب منهما، وجملات وبدرية وقفتا أحداهما تمسك بالبشكير والأخرى بكوز المياه.

أخذ عمران يقسم الرقاقة إلى نصفين ثمَّ يطويها ويغمسها في المرق ويدس بها في فمه.

لمْ يجرأْ هريدي أن يضع يده في صينية اللحوم، كي يأخذ منها شيء، قبل أن يأخذ أبيه، حتَّى وضع عمران يده وأمسك بقطعة كبيرة سمينة والتهمها، ثمَّ قطعة ثانية حينها بدأ هريدي يضع يده ويأخذ من اللحمة، وأخذا يأكلان قطع اللحمة السمينة التي يقطر منها الدسم، ليقول عمران:

- عليٌّ الدميري طلب مني أن يتزوج فايزة.

أومأت الحاحة نجية برأسها ثمَّ قالت:

- حتى أمه كلمتني عن ذلك.

هزَّ رأسه وداعب طرف شاربه ثمَّ قال:

- ناس طيبون خاصة عليٌّ غلبان لكن لا يمتلك شيء

كانت الفرحة والابتسامة تعلو شفنتي جملات وبدرية وصفية، عدا فايزة لمْ تكنْ في حالة تشير إلى السعادة.

هريدى:

-عليٌّ رجل جدع، ويستحق كل خير.

عمران:

- أنا قلت لهم أفكر وأرد عليكم.

لينادي على فايزة.

- فايزة:

- نعم يا أبويا.
- ما رأيك في هذا الكلام؟ حتَّى لا تقولي أنتم أرغمتوني على الزواج منه.
لمْ تجبْ فايزة إنَّما نظرت في الأرض.
قالت جملات:
- الرأي رأيك يا سيد الناس.
هزت الحاجة نجية رأسها مؤمنة على كلامها، وما لبث أن نهض الشيخ عمران من على الطبلية، حتَّى أتت صفية بالإبريق والصابونة، وقد أخذت تسكب الماء على يد أبيها في بطئ، ليقول:
- نحن نأخذ رأيها حسب الشرع.
ليقول هريدي في حماس بعد أن نهض.
- يا أبويا هي البنات لها رأي.
الحاجة نجية:
- السكوت علامة على الرضا.
بعد أن نهض هريدي ثمَّ غسل يديه، لتجلس النساء وأمير الصغير يأكلون، غير صفية التي أتت ببراد الشاي، ليأخذ الشيخ عمران رشفة شاي، وقال:
- على بركة الله.

****

بعد أن أكمل حمدان دراسته الجامعية، وحصل على بَكالوريوس الاقتصاد والعلوم السياسية وبتفوق، إلى أن حلمه أن يلتحق بالسيرك الدبلوماسي، تفتت على صخرة واقع مرير يتلوث بالرشوة والفساد والمحسوبية، ويسخر من أبناء الفقراء الطامحين في مستقبل أفضل، ومن يمتلكون كل شيء سدوا كل منافذ السلطة، وجعلوها حصريَّة لهم فقط، ولمْ يتركوا حتَّى ثقب أبرة ينفذ منه حمدان وأمثاله، لكن كيف يكون ذلك وأبيه يمتلك عشرة أفدنه، لكن بمقياس المال هذة الأرض لا شيء، أيضًا فإنَّها تورث ولا تباع، إضافة أنَّه من عائلة متواضعة اِجتماعيًّا.

كان عليٌّ حمدان اتخاذ خطوات بديلة، ولا يوجد غير أرضهم كي يدفن فيها حلمه، وتحتضن شقاؤه وترتوي من عرق كفاحه، ولمْ يحزن أبواه كثيرًا، إنَّه ابنهم الكبير وفراقه ليس بالأمر اليسير عليهما.

أخذ حمدان يعزق الأرض بالفأس، حيث يقوم للإعداد للزراعة ولتهويتها وإزالة الأعشاب المضرة، خلع جلبابه ليظل بالكلسون والسديري، ومن حين لأخر يمسح عرقه بالمنديل القماش، لتقع عيناه على نسمة التي ترتدي الملاية اللف، وتمسك في يديها لفافة، وقد بدت كإشراقة شمس في نهار شتوي، ليتوقف حمدان عن العزق، ويبتسم فرحًا قائلًا:

- أهلًا. . . أهلًا بالقمر!

ضحكت نسمة طربًا:
- ربنا يخليك يا ابن عمي.
- لماذا تعبتي نفسك؟
- أنا كنت عندكم في البيت وزوجة عمي طلبت مني أن أحضره لك ولأخي طَلْعَت.
تناول منها اللفافة التي كانت تحوي عيش شمسي وجبنة قديمة وبيض وبصل وفلفل أخضر، وضعها على الأرض ثمَّ جلس، وقال:
- اتفضلى معي.
في ابتسامة:
- بالهنا والشفا يا ابن عمي سوف أذهب لطلعت بالغدا.
- لا يمكن لا بد أن ترتاحي قليلًا.
جلست، وأخذت توجه له نظرات خاطفة في حياء، ليمسك برغيف ويقسمه نصفين ويعطي لها نصف ويقول:
- إن لمْ تأكلي معي لن أتناول شيء.
كانت من داخلها تريد أن تجلس وتستمتع بأكبر قدر ممكن في صحبته، في ابتسامة رقيقة قالت:
- حاضر سوف آكل معك لا يمكن أزعلك.
أمسك بصلة وراح يضربها بقبضة يده حتَّى قسمت نصفين، وأمسك بيضة وأعطاها لها، كانت من حين لآخر تنظر إليه في هيام وحب، إنَّه لا يمثل ابن عمها فقط، بل حبيبها وفارس أحلامها،

عشقه يجري في دمها منذ الصغر، لمْ تتخيل يومًا أن تكون لغيره، لما لا وهو حلم للكثير من بنات النجع، إضافة أنَّها اِبنة عمه وهو أولى بها، ولطالما اِرتوت من حنانه والود الذي يحيطها به، والاهتمام الزائد الذي يبديه لها عندما يراها، إذن لا بد وإنَّه يبادله نفس الشعور.

****

تعتبر موافقة فايزة للزواج من عليٍّ، أمر مفروغ منه، عندما أخذ الشيخ عمران رأيها، لمْ تكن تملك خيار آخر غير السكوت، وكأي فتاة صعيدية، لا بد وأن تسمع بأذن أبواها، وتتكلم بلسانهما وتفكر بعقليهما، ورغم أن فايزة لمْ تكنْ مقتنعة أبدًا بعلي الدميري، لمْ يملأ عيناها أو تشعر بأنَّه الرجل الذي يستحقها، إنَّها من أجمل فتيات النجع، واِبنة شيخ البلد، أذن فمن حقها أن تحلم، لكن هذا لمْ يتحقق وعليها أن تسلم بذلك إجبارًا وليس اختيارًا، أمَّا عليٌّ كان يحلم بها وبوجهها الذي نحت بكل تفاصيله في عقله، يطارده أينما ذهب، وأخيرًا تحقق له ما أراد، وحقيقة أنَّه يستحق ذلك فعلًا؛ لأنَّه لمْ يخشَ أن يرفض من أبيها، كم من شاب حلم بها أيضًا، سرعان ما تفتت حلمه على صخرة الشيخ عمران، حينما يقول لنفسه أنَّه لا يمكن أن يوافق عليه، وأن ينال رضاه، فلا بد من أنَّه يزوجها لأحد يكون ندًا له ومن عائلة كبرى، لكن عليٌّ لمْ يفكرْ في ذلك، وحقًا يفوز باللذات كل مغامر، ويموت بالحسرات

كل جبانٍ من يقرأ العواقب.
في الصعيد الذهب شيء أساسي في الزواج، عند الخطبة يتم الاتفاق على مبلغ كبير يشترون به الشبكة، ولا بد للعريس من الانصياع لذلك، حتَّى وإن كان فقير بل ومعدم، وبما إن الحاجة أم الاختراع، فقد ابتكر الأهالي طرق للتحايل على ذلك الأمر، من بينها أن يذهب العريس إلى الصائغ، قبل الميعاد المتفق عليه من الطرفين لشراء الشبكة، ويتفق معه على أن يستأجر ذهب بقيمة معينة لمدة ثلاثة أشهر أو أكثر نظير مبلغ معين، أو أن يشتري منه الذهب لكن بالفائض، لو أخذ ما قيمته ثلاثون ألف، يسددهم بعد سنة ستون، وهاتان الطريقتان يتبعهما الكثير من الشباب.
في محل الذهب يجلس عليٌّ في صحبة أبيه، مع الصائغ كي يضعان الاتفاق الذي سيتم تنفيذه.
الدميري:
- بعد أسبوع إن شاء الله سوف نأتي لكي نأخذ بثلاثون ألف ذهب.
- تمام يا دميري لكن ما هو النظام الذي تريدونه.
عليٌّ:
- إيجار.
الدميري:
- لأ

-لماذا يا أبويا؟
- يابني لا يصح أن تأخذ الذهب وبعد فترة تأخذهم من زوجتك، الشيخ عمران لا يمكن أن يوافق على ذلك، اِسمع أستاذ نجيب نحن ندفع عشرة الآف والعشرين الأخرى على سنة.
هزَّ نجيب الصائغ رأسه، وقال:
- المبلغ سوف يكون أربعين بعد سنة.
هزَّ الدميري رأسه ثمَّ أخذ نفس عميق، وقال في خضوع:
- موافق يا أستاذ
وضع عليٌّ يده على فمه ومسح على جبهته، وسريعًا ما أحضر نجيب الصائغ دفتر إيصالات أمانة، ثمَّ جلس إلى جوارهم، وأخرج الدميري الخاتم، وراح عليٌّ يمضي عشرة إيصالات، كذلك الدميري الذي ختم عليهم جميعًا على بياض، وبعد الانتهاء، قال:
- على الله تكون على قدر المسئولية.
في سعادة، وهو يربت على أبيه:
- ربنا يخليك لي يا أبويا!

****

معظم شباب وفتيات النجع، أبدًا لا يفشون حبهم لأحد إلَّا فيما ندر، يحتويه بئر عميق من الكتمان، ويغلفه العيب والحرام، وصى عليه الأعراف والتقاليد، والنشأة القاسية، التي تعتبر الحب والترفيه، أبعد ما يكون عن مظاهر الرجولة الكاملة للشباب،

والعفة والطهارة للفتاة.

ينشأ الآباء سواء أكانوا أغنياء أو فقراء، أبنائهم على أشياء شبه موحدة، كأنَّهم ينفذون بنود عقد متفق عليه يتوارثونه جيل بعد جيل، حيث أن الكد والعمل فريضة على كل شاب حتَّى وأن بدا طفلًا.

هل ممكن أن يأتي شاب، ليقول أنَّه يرغب في التنزه أو أن يذهب إلى سينما، أو مسرح، أو ملعب كرة قدم يشاهد الفريق الذي يحبه أو أن يقضي (ويك إند) على أحد الشواطئ، نستطيع أن نجزم أنَّه شبه مستحيل أن يحدث ذلك، فما بالنا بالفتاة التي لا تخرج إلَّا مرات معدودة خلال الفترة التي تكون فيها بين جدران بيت أبيها، وأن خرجت تكون ملتفة بالبردة، كخيمة ليس بها إلَّا نافذة صغيرة، تكون مرآتها على العالم الخارجي، ولترى منها الطريق والدنيا الأخرى التي حجبت عنها بفعل فاعل، لكن سرعان ما تغلقها عندما تمر على رجال، تاركة في نفوسهم شغفًا، ولبعض الوقت يذهب بعضهم لرسم تفاصيل تلك المرأة في خياله، ويعصر عقله محاولًا معرفة أي شيء مميز من الممكن أن يجعله يتعرف على هويتها.

التعليم في الصعيد غير ضروري لدى البعض، الأب الذي ورث الجهل يكون غير مقتنع تمامًا بأهمية التعليم، وعلى استعداد تام وقد هيئ نفسه كي يخرج اِبنه من المدرسة عند أول تعثر،

وأحيانًا كثيرة يكون عامل محفز على إفشاله، لكن هذا لا يمنع من وجود بعض الآباء الذين يحرصون كل الحرص على تعليم أبنائهم، لكن تعليم البنات شبه مستبعد، ولا يوجد ما يدل على أكثر من الجملة الشهيرة (البنت لزوجها) إن وجد بنت التحقت بالمدرسة، سرعان ما يتم إخراجها عند البلوغ، لأنَّها مرحلة الحبس المؤقت، حيث الخروج بضوابط وفي أضيق الحدود.

****

كان طفلان صغيران نما الحب داخلهما تغذى على البراءة، ونفوس صادقة وابتسامات صافية حينها لمْ يدركان أنَّهما يخطان قصة سوف تكتب بدموع أعينهما ومرت الأيَّام وهما يركضان خلف حلمهما حتَّى بدأت علامات النضوج تأخذ من ضحى مأخذ الجد حينها كشيء متعارف عليه أَلزمت دار أبيها لا تبرح عتبة بابه إلَّا وتكون ملتفة بالبردة، وذلك يكون في أضيق الحدود.
كانت لا تفوت فرصة تكون خارجة لزيارة أحد أقاربهم إلا وتمر على حمدان، وتختلس النظرات من خلف النافذة الصغيرة التي تركت لها في البردة أمَّا حمدان فكان يعرف خطواتها ورائحة عطرها التي تهفهف من خلف ثنايا جسدها، واستمر ذلك الحال إلى أن سافر حمدان يدرس في الجامعة كانت أشواقها لا تنقطع وحبهما يضرب بجذوره في عمق قلبيهما.
مرت عليه سنوات الدراسة كان يظن بأنَّها كفيلة بأن تذكره ما

أنساه الحب إيَّاه، لكنَّها أبدًا لمْ تكنْ إلَّا أن تزيده عشقًا وولعًا بها كان يتذكر كل نفس كل لمسة على الرغم من إنَّه رأى وتعامل مع من هن أجمل منها إلَّا أنَّه كان يراها بقلبه أجمل من هن جميعًا رغم بساطة ملابسها التي تبتعد بمسافة ليست قصيرة عن خطوط الموضة لكنَّه يشعر أنَّها أكثرهن أناقة إنَّه العشق الذي لمْ يبحثْ عنه لمْ يألفْ صخب المدينة بكل ما فيها من مظاهر الترف والمتعة وكان أصدقاؤه يتعجبون من ذلك الشاب الميسور الذي لا يبدي أي مشاعر لهفة أو فضول لمن يبتغون إليه سبيلًا ويتسابقون للظفر به كان يرى متعته الحقيقية في زراعة الأرض، واللون الأخضر الذي يرتاح له قلبه قبل عينيه ويحن إلى الجلوس تحت الشجرة في أرضهم يتناول الغداء بعد مجهود شاق في عزق الأرض، وبين الحين والآخر يمسح عرقه الذي يتساقط من جبينه على الطين المروى بعرق أبيه وأجداده تلك الأرض التي على ما يبدو أن بها غراء يلتصق بمن ولدوا عليها.

بعد أن أنهى حمدان دراسته الجامعية، وبتفوق حينها خفق القلبان ابتهاجا وشوقًا لأيَّام الطفولة، وراحت ضحى تتقصى أخباره هنا وهناك حتَّى همس إبراهيم في أذنها بأن حمدان ينتظرها تحت الشجرة، وأخيرًا استطاعا أن يحصل على ميعاد يلتقيا فيه لأول مرة منذ أن أضحى شابان يافعان فتحت الدنيا لهما ذراعيها.

قبيل الميعاد المحدد أمسكت بمرآتها وراحت تقرص في خدودها حتَّى حدث لهما اِحمرار طبيعي وأصبحا كوردتان حمراوان مشرقتان ثمَّ دعكت شفتاها في بعضهما حتَّى سال عسل ريقها في انتظار من يتذوقه وراحت تفكر فيما ستقوله لأمها حتَّى تخرج فكرت مليًّا وكثيرًا.

اقتربت ضحى من أمها التي تجلس على مقعد خشبي صغير خلف الموقد تطهو الطعام والبخار يتصاعد من الحلة لتستنشقه ضحى ثمَّ تأخذ نفس عميق محاولة استجماع شجاعتها، وتقول:

- أنا ذاهبة إلى فايزة يا أمي.

- أمسكت أمها بغطاء الحلة، وراحت تحرك (بالمغرفة) الطعام ثمَّ قالت دون أن تنظر إليها:

- لماذا؟!

- تريدني أن أساعدها في عمل فطير.

نظرت إليها ثمَّ قالت وهي تلوي شفتيها.

- اذهبي لكن لا تتأخري حتَّى لا يتشاجر أخوكِ معك

غمرها نهر من السعادة وقلبها قفز من الفرحة!

- حاضر.

عدلت من ملابسها ثمَّ فتحت الباب، وخرجت يسبقها شوقها إليه إنَّها تحلم باليوم الذي تكون في بيته، تحتضن الوسادة، وتسبح في عالم الخيال، تفعل المستحيل وتخاطر بحياتها من أجل أن

تراه، وتضع يدها بين دفئ يديه وتملي عينيها من تقاطيع وجهه وابتسامة عينيه.
بين عيدان الذرة وهي تتمايل يمينًا ويسارًا على أثر نسمات هواء صافية كان لقائهما، كما اعتاد منذ الصبا، وخفق قلبه بشدة، حينما هلت عليه في خطوات خجولة الشعور بالذنب يلاحقها والخوف يكاد يفتك بها، والتقت عيناهما والعرق يتصبب منهما، والبسمة الصافية العذبة مشتاقة أن تذوب في شفايف الآخر، مد لها يده حتَّى يتذوق لمسة يدها الحانية وقال:

- كيف حالك يا ضحى؟

- الحمد لله.

- اِشتقت إليكِ كثيرًا!

في ابتسامة وقد أحمرت وجنتيها في حمرة الخجل!

- وأنت أيضًا.

في فرح!

- حقيقى يا ضحى؟

- معقول لا تعرف؟!

- أحب اسمها من شفايفك الجميلة!

أمسك يدها ثمَّ جلسا متجاورين، واختفيا بين عيدان الذرة العالية، وقال:

-أنتِ كل شيء بالنسبة لي، لا تفارقين خاطري أبدًا حتَّى عندما

كنت في الكلية.
- أنا أيضًا لمْ أحب غيرك أنت أملي وحياتي.
بعد لحظات صمت مفعمة بالحب والاشتياق قالت:
- ونسمة؟
- نسمة ماذا؟!
- ما تمثلة لك؟
في جدية:
- نسمة اِبنة عمش لا أكثر، لا يوجد في قلبش غيرك.
أمسك يديها بين يديه ثمَّ طبع قبلة رقيقة، وقال:
- بحبك!
خفق قلبها بشدة، وارتعشت يدها قائلة في صوت متهدج:
- وأنت حبيبى!

****

المظاهر شيء أساسي في العلاقات الإنسانية، لكل مجتمع طقوس وعادات تخصه دون غيره، تختلف باختلاف الثقافة والتطور، في النجع الزواج حدث هام جدًا، حينما يبلغ الشاب السادسة عشر يبدأ جديًّا التفكير في الارتباط، وإن لمْ يتخذْ هو خطوة إيجابية، لا يتواني أبواه عن حثه على ذلك، وقد يتخذون هما المبادرة، حتَّى إن كانت عائلة فقيرة.
بعد أن تمَّ الاتفاق بين الصائغ وعلي الدميري، على قيمة الذهب

الذي لا بد منه، وتمَّ تحديد موعد مع الشيخ عمران لكي يذهبا فيه لشراء الشبكة، حيث تجمع كلًا من العائلتين داخل سيارة (ميكرو باص)،

حيث جلس عمران والدميري بجوار السائق بينما زوجاتهما، وأولادهما في الخلف، وراحت النساء يتبادلن أطراف الحديث في صوت هامس، حتَّى وصولهن عند نجيب الصائغ.

في ترحاب شديد قابلهم نجيب قائلًا:

- أهلًا. . . بالشيخ عمران والحاج الدميري.

الشيخ عمران:

- كيف حالك يا نجيب؟

- بخير يا سيد الناس.

دخل الجميع المحل، حيث جلست النساء على المقاعد، ووقف الرجال أمام الفترينة، وسريعًا ما طلب نجيب من مساعده من إحضار زجاجات مياه غازية لهم.

كانت فايزة في حالة عدم رضا وقبول تلك الزيجة، وذلك يظهر جليًّا واضحًا على سحنتها، إنَّها قماصة نمرة واحد، لكن ما يمكن أن تفعلة غير ذلك، وحاولت الحاجة نجية تبرير ذلك، بأنَّها خجولة مكسوفة.

أخرج نجيب علبتان بهما خواتم ودبل وأعطاهما للحاجة نجية التي قالت:

- اختاري يا عروسة شبكتك.
بعد أن اِختارت دبلة وخاتم، أحضر نجيب علبتان بهما غوايش وأساور، وراحت فايزة تتفحص في نهم واضح للذهب، تتمنى لو أخذت العلبتان كاملتان، أثناء ذلك كان علي يوجه نظرات فاحصة لوجه فايزة حيث أول مرة يراها عن قرب، وتمنى لو كانت لا ترتدي البردة حتَّى يرى تفاصيل جسدها، أمَّا هي فكان وجودة بالنسبة إليها مثل عدمه، وقد انشغلت تمامًا، بانتقاء كل ما هو غالي وثمين.
كان المساعد قد أحضر المياة الغازية، ليهمس هريدي في أذن علي بأن يقفا خارج المحل حتَّى يدخنان سيجارة، ليهز رأسه موافقًا في غيظ مكبوت.
راح نجيب يحسب قيمه ما اختارته فايزة، ليقول الدميري مداعبًا:
- متحفش في المصنعية يا نجيب.
ابتسم نجيب، وقال:
- أنت تعرف يا عم دميري سوف أعمل معكم الواجب من غير ما تقول.
أخرج الشيخ عمران علبة السجائر وأعطى كلًا من الدميري ونجيب الذي هزَّ رأسه قائلًا:
- الفاتورة ٤٠ ألف
هزَّ الدميري رأسه في عدم ارتياح، كذلك زوجته وقال:

- نزل من الذهب غويشتان لكي تكون ثلاثون ألف
قامت فايزة بلوى شفتيها، ليقول الشيخ عمران:
- اعمل فاتورة يا نجيب أنا سوف أدفع ١٠ آلاف الفارق.
انطلقت عاصفة من الزغاريد من قبل النساء الذين راحوا يقبلون، ويعانقون في فايزة.

****

أخيرًا بعد طول انتظار وصبر، حصل على ما كان يتمناه، تحقق الحلم الذي راوده منذ أيَّام الصبا، وقد وقع خبر زواجهما كالصاعقة على بعض مِمَّا لا يعرفون شيء في الحياة إلَّا الحقد والحسد، الذين استكثروها عليه ونال قسطًا وفيرًا من السخرية، لكنَّه لا يبالي إنَّه يعرف أن فايزة كانت ولا زالت مطمعًا للعديد من الشباب، لكن هو فقط من سيظفر بها، وسيرتوي من جسدها الفائر البض، ومن شفتيها الملتهبتين الطرتين، وقد حانت اللحظة بعد أن كتب الكتاب في الجامع، وتوزيع الملبس والشربات، وأحس كأنَّه ملك الدنيا عندما وضع يده في يد الشيخ عمران، ولوهلة شعر بأن جسده تضخم ورقبته تطاولت وعانقت عنان السماء، وراح يزهو ويختال بنفسه، كديك فرغ للتو من النيل من فراخه.
علقت الزينة واللمبات الملونة في مدخل البلد، وأمام منزل الشيخ عمران والدميري، ورشت الأرض بالمياه، وتمَّ نصب المسرح والمقاعد التي اِمتلأت بالأطفال الصغار الذين انتشروا في المكان، وكأنَّهم

نبتوا من الأرض فجأة، يهرولون حفاة ويرتدون الجلاليب البلدي، كانوا في انتظار الفرح وذبح العجل، حيث أن كلا العائلتان يذبح حتَّى يؤكل معازيمه.
نحن الآن في الصباح الباكر، أمام منزل الشيخ عمران، الذي يقف في صحبة هريدي والجزار ومساعده، وهما يمسكان بالعجل كي يذبحاه، وقد راح الجزار يسن الساطور، أثناء ذلك كانت المنطقة تعج بالأطفال، الذين تجمهروا وأخذوا يصيحون ويهرولون خلف بعضهم البعض.
بعض ذبح العجل وتقطيعه وتقسيمه، وقد احتفظ الشيخ عمران بالكبدة والثلث، أمَّا الثلثين خصصهم للفرح، حيث جاء كوارع الطباخ ومساعده وعدة الشغل، ليقول الشيخ عمران بعد أن راح ينظر إلى كرش كوارع، الذي تدلى أمامه حتَّى كاد ينفجر كبلون اِمتلئ بهواء زائد، وإلى خدوده المنتفخة حيث بدا كشخصية كرتونية، وهو يمشي يتمايل يمينًا ويسارًا.
- نورت يا كوارع لماذا أنت خاسس؟!
وهو يضحك وقد أخذت خدوده في الاهتزاز وكرشه في الارتجاج.
- ربنا يبارك فيك يا عم الشيخ.
بعد أن ابتعد الشيخ عمران وهريدي الذي قال في سخرية وهو يقهقه.
- كوارع بيأكل نصف اللحمة التي يطهوها.

وفي المساء كان المعازيم بدأوا في التوافد، النساء تجمعوا داخل الدار وبعيدًا تمامًا عن الأعين، والرجال تجمعوا داخل المندرة وخارجها، والجلوس على الدكك التى أتت من كل صوب وحدب في النجع، كي تكفي العدد الهائل من المعازيم.

****

بدأت زنوبة (النتافة) تزيين العروس، حيث بدأت في صنع خلطة الحلاوة، التي تتكون من السكر والليمون ووضعهما على النار ومن ثمَّ قامت فايزة بخلع ملابسها وجلست عارية في الطشت، وأخذت زنوبة في انتزاع الشعر الزائد بالحلاوة، وقد كانت فايزة تتمتع بذلك الألم اللذيذ الذي يشبه الزغزغة، وبعد الانتهاء قامت بتليفها ودعك جسدها بالليفة والصابونة والماء الساخن، حتَّى أصبح جسد فايزة ناعمًا وساخنًا وطريًّا كقطعة بطاطا تمَّ تسويتها على نار هادئة!

كذلك العريس لا بد وأن يكون له نصيب من الحموم، حيث يجلس في طشت وإلى جانبه صفيحة الماء الساخن، وأحد أصدقاؤه يسكب عليه بالكوز، لكنَّه لمْ يكنْ عاري إنَّما كان يرتدي لباس، وبعد الانتهاء اِرتدى جلبابه الأبيض والعمامة المزهرة، ووضع على كتفه الأيمن اللسة.

جاءت فرقة الطبل البلدي في المساء، وراحت تعزف على المزمار الأغاني والمواويل التي يطرب لها الرجال والنساء، والتف الشباب

حول الفرقة على شكل دائرة، حين ذلك كانت النساء يقفن خلف النوافذ ينظرن، وقد وضعن طرح تخفى معظم وجهن ولا تظهر سوى أعينهن.

أخذ الشباب يرقصون بالعصا والبعض الآخر تبارى في التحطيب، وعندما أمسك حمدان العصا، وراح يستعرض مهارته في الرقص والتحطيب، نال استحسان جميع الحضور من رجال ونساء، وسريعًا ما دبت نار الغيرة والحقد الدفين في قلب عسران، وما كان منه إلَّا أن أمسك بعصا متحديًّا، ونال ذلك تشجيعًا وتصفيقًا مرغمًا واضطر حمدان أن يتجاوب للإلحاح والتحدي الذي فرض عليه، ولا يمكن أن يتراجع، وإلا سقط من نظر الجميع، بل وصارت ذلة يعاير بها.

أفرغت الساحة تمامًا إلَّا من حمدان وعسران، وراح الجمع ينظر في ترقب ولهفة للمبارازة الحامية، وارتطمت العصايتان ببعضهما، وفي خفة تفادى حمدان ضربة قويَّة من عسران، ثمَّ قفز في الهواء ولف حول نفسه وراح يسدد له ضربة لكن عصايته تلقفتها عصا عسران، والتقى الاثنان وتقارب جسيهما في تحدي للقوة، وهمَّ عسران بضرب حمدان لكنَّه تفاداها في سرعة وضرب عصاه في قوة حتَّى طارت من يده، ثمَّ ألقى عصاه على الأرض وتصافح الاثنان، والغضب يتطاير من عينا عسران، أثناء ذلك راحت أصوات طلقات الرصاص الخارجة من فوهة البنادق الألية والطبنجات تزغرد في

سماء النجع، وأخذت زنوبة تغني في صوت خشن والنساء يرددن ورائها.

بعد طول انتظار وقد فرغت الأمعاء وصارت تصيح من الجوع والخواء، حيث أن معظم المعازيم في الغالب لا يأكلون، كي لا تحسب عليهم أكلة دون استفادة، وضعت أمامهم صواني صاج كبيرة عليها الفتة واللحمة والملوخية الخضراء والويكة، والتف كل مجموعة أقارب مع بعضهم حول صينية، ومن حين لآخر ينادي أحدهم على هريدي أو كمال، ويقول وهو يلهط في نهم وقد رفع أكمام الجلباب وينهش بأظافره في اللحمة (أريد قطعة لحمة).

بعد أن امتلأت البطون، واحتساء الشاي والمياه الغازية، التي صار الحصول عليها يحتاج إلى مغامرة، حيث تجمهر الأطفال حول من يقوم بتوزيعها والتخطيف من يده، وعلت أصوات الزغاريد عند وصول العروسان، وما هي إلَّا لحظات حتَّى دخلا غرفة نومهما.

****

سرعان ما تحرر عليٌّ من العمامة، وتخفف من الجلباب وظل واقفًا بالفانلة واللباس، يحدق في فايزة في نهم وشراهة الحرمان قائلًا:

- نورت بيتك.

أقترب منها ثمَّ رفع الطرحة من على رأسها وحاول مساعدتها في خلع الفستان لتقول في حسم:

- أنا سوف أخلع بنفسي.
نهضت من على السرير، وخلعت الفستان حتَّى صارت بحمالة الصدر والكلوت، حين ذلك كانت أعصاب عليٍّ سابت وارتعشت أطرافه، حاول إمساك نفسه لكنَّه في عجالة خلع الفانلة واللباس، ثمَّ تنهد ونفض رأسه وهمَّ يمسك بها لكنَّها قالت في صرامة:
- اهدأ ممكن نتحدث قليلًا.
في ضجر وقد قهرة الشبق.
- هذا وقت كلام؟!
- حتَّى نأخذ على بعض.
في غضب، وفقدان صبر.
- نتكلم في وقت آخر.
أمسك بكتفها محاولًا إلقائها على السرير، لكنَّها دفعته في قوة قائلة في حدة:
- الكلام الذي أقوله يسمع وإلَّا لن تأخذ مني شيء!

****

٤

بين الضباب والدخان المتصاعد من أحجار البانجو، اجتمعت العصابة في سهرة صباحي، حيث الأنفاس وكركرة الجوازة يقهقهون ويقولون المواويل، لكن هل السهرات تكون من أجل هذا فقط؟ أبدًا فإن لها هدف أهم ألَا وهو التخطيط لسرقة جديدة.

بما أن الأربعة لا يعملون إذن فمن أين يأتون بالمال؟ إلَّا عن طريق السطو على أحد الفلاحين الغلابة المنكسرين، وكان ذلك يتم من وقت لآخر.

كان الخص أصبح مثل الساونا من البخار والصهد، المتصاعد من الأنفاس والأخشاب المشتعلة في القصعة.

أخذ عسران يطقطق رقبته يمينًا ويسارًا، ويأخذ أنفاس متقطعة من الجوزة، أعقبها بنفس طويل ليخرج الدخان من فتحتي أنفه حتَّى صارتا كشكمان دراجة نارية مزدوج، ليقول عنتر:

- قول يا كبير.

مسح عسران على جبهته، ثمَّ وضع أصبعه في أذنه وأخذ يحرك فيه بطريقة دائرية وسريعة، وقال:

- ضاحي مسافر إسكندرية وزوجته كل يوم عند آذان المغرب تذهب إلى بيت أبيها، معنى هذا إنَّنَا نذهب بالليل ونكون على راحتنا.

قام الفار بتغيير الحجر حيث وضع حجر جديد وعليه البانجو وأمسك بالماشة ووضع قطعة فحم كبيرة متوهجة ثمَّ قال:

- لكن ضاحي فقري، ولا يمكن يكون في دارة شيء يستحق السرقة.

قال أبوزيد وهو يقهقه وقد أمسك بالجوزة وأخذ نفس.

- وهل نحن معنا بقول ندعبس يمكن نعثر على شيء وبعدين ضاحي جلدة أكيد مدكن.

عسران:

- هذا هو الذي أمامنا الآن أحسن من لا شيء وأيضًا عنده بهائم إذن لا يمكن أن نخرج خاويين.

هزَّ عنتر رأسه مُؤَمِن على كلام عسران ثمَّ قال:

- كلام عسران صحيح فقد اشترى نعجة الأسبوع الماضي.

أمسك عسران بالجوزة وأخذ عدة أنفاس ثمَّ قال:

- شوفوا الفار سوف يراقب الطريق وعنتر يقوم بعمل فتحة في الحائط، نظر إلى الفار، وأكمل في لهجة يشوبها صرامة انتبه جيدًا يا فار وتفتح عينك ولو شعرت بأي حركة تأذن الفار.

- كيف؟

- عسران:

- تقول -الله أكبر- كي نعرف أن فيه شيء ولا أحد يلاحظ كأن الجامع بيأذن مبكرًا لصلاة الفجر التنفيذ غداً الساعة ٢ نتقابل هنا ثمَّ نذهب إلى هناك هزَّ الجميع رأسه قائلين (تمام) ثمَّ نهض الفار وقد أمسك بالجوزة وأخذ يرقص ويتمايل وضج الخص بالضحك والقهقة.

****

ما أن انتهت زبيدة من وصلة الرقص حتَّى ضج الحضور بالتصفيق والتهليل مرددين كلمات -إيه الحلاوة دي- يا أبوي قمر الله ينور عليكِ- أيوه يابت- إلا واحد فقط اختصر السكة حيث نهض في هدوء وقد حسم أمره إنَّها أعجبته حقًا، وخطفت قلبه وعقله حيث كان أشار لها وكذلك هي أيقنت إنَّه ليس مثل هؤلاء الزبائن التي تعرفهم بالواحد وقد أخذ الفقر من مظهرهم حيزًا هامًا لكنَّه بدا عليه الثراء والنعمة ومن ثمَّ غمزت له وعند دخولها غرفتها الخاصة أشارت لحنفي وعليه وكأنَّه جواز مرور له كان هذا الشخص كمال الذي لفت وجوده انتباه الجميع الذين راحوا يسددوا له النظرات ما بين الحسرة والغضب والتمني في أن يصبحوا مثله ثمَّ أخذوا في الانصراف تباعًا حتَّى فرغ الشادر تمامًا إلَّا من بكرى وكمال الذي اتجه ناحية الغرفة التي تتواجد فيها زبيدة ثمَّ أخرج من حافظته الكبيرة والتي تكتظ بالأموال مئة جنيه ثمَّ دسها في يد حنفي الذي اِنزاح عن الباب ليدخل

كمال وقد دهش وجعلته المفاجأة يتسمر في مكانه في ذهول عندما وجد امرأة سمينة طاعنة في السن ترتدي ملابس سوداء وسرعان ما قطعت حاجز الصمت قائلة في ترحاب وقد انبسطت أساريرها وهي تضرب على مقعد جانبها لتنفض من عليه أي غبار أو أتربة.

- أهلًا بالباشا.

نفض كمال رأسه ثمَّ قال:

- أهلًا بيك يا خاله.

أشارت له المرأة بالجلوس.

- اِجلس هنا.

في حيرة!

- لكن

ضحكت ثمَّ قالت في خبث:

- اِجلس لا تخاف.

في جدية وصرامة:

- أخاف من ماذا يا ولية؟! أنتِ لا تعرفين مع من تتحدثين؟!

هزَّت رأسها ولا زالت الابتسامة على وجهها:

- من غير ما تقول يا بني باين عليك تعال اِجلس وطلبك موجود وراء الستارة (بيغير هدومه)، وسوف يأتي. . . ثمَّ نادت. . . بت يا زبيدة خلاصتي وأتى صوتها رقيق عذب.

- حاضر يا أمه.
- ما اسمك يا عمدة؟
- كمال يا خاله.
- عاشت الأسامى.
أثناء ذلك كانت زبيدة قد خرجت من خلف الستارة ترتدي عباءة حمراء ذات خطوط طويلة سوداء، ولها فتحة في الجانب الأيمن تصل حتَّى فخذها عندما رأها كمال أمسك بطرف شاربه وأخذ يبرم فيه لتبتسم زبيدة ثمَّ تضحك قائلة في دلال ورقة.
- أنت؟!
في لهفة.
- نعم أنا يا قشطة.
ضحكت ثمَّ قالت:
- أنت القشطة يا باشا.
جلست إلى جوار أمها التي نهضت في صعوبة ثمَّ قالت:
- أنا ذاهبة أحضر شيء من الخارج أنت ليس غريب يا عمدة.
قبل أن تكمل كلمتها كان كمال أخرج محفظته وسحب ورقة بمئة جنيه ثمَّ طبقها، وقال:
- اتفضلى يا خاله.
وهي تبتسم
- يأخد عدوك ربنا ما يحرمني منك.

أخذت عمتها المئة جنيه ثمَّ خرجت وجلست زبيدة إلى جوار كمال ليقول وقد تهللت أساريره وطلت الفرحة من بين عينيه.

- يا بوي أنتِ حلوة جوي. . . جوي.

ضحكت في صوت عالي!

- تسلم يا عمدة.

- بلاش عمدة.

وهي تضحك!

- اسمك يا عسل؟

- كمال يا مهلبية.

وهى تنظر إليه في إعجاب وهيام وقد طوقته بسحر عيناها.

- تعرف أن أول مرة ارتاح لأحد هكذا.

وهو يبتسم وقد تملكته سعادة طفحت على جسده الذي تضخم كذكر الضفدع في موسم التزواج ثمَّ قال:

- صُح يا زبيدة.

في تسبيل عيون وقد تغنج صوتها ولهثت أنفاسها وكأنَّها تركض.

- صُح الصُح يا روحي

قام بجسده قليلًا حتَّى تلاحم جسديهما، وقال:

-أنا كذلك يا زبيدة أشعر وكأنِّي أعرفك من زمان.

أخذ يمرر يده على شعرها وهي تنظر إليه في بسمة ودلال هزَّ رأسه ثمَّ نفضها، وقال وقد غلبه التعجل.

-هو النطع الذي يقف في الخارج ما صلته بك.
هزَّت رأسها ثمَّ أشاحت بوجهها ونظرت في الأرض وقالت في صوت واطي.

- لا شيء

في دهشة!

- كيف؟

- تقدر تقول بلطجي بيحرسني، وبيأخذ إتاوة.

- هزَّ رأسه ثمَّ أخذ نفس عميق، وقال:

- تمام وعمتك يمكن تأتي؟

- لا عمتي لا يمكن تدخل إلَّا إذا أنا خرجت وقلت لها ادخلي.

كان في جانب الغرفي سرير صغير نظر إليه كمال ثمَّ قال بعد أن أمسك بيدها، وهو يقف.

- تعالي.

وهى تضحك!

- أنت تأمر.

أخذ يضحك ثمَّ قال:

-ليلتك قشطة يا عسل.

****

عدد المحلات في النجع من الممكن أن تعد على أصابع اليدين وفي الغالب تكون هذه المحلات من داخل الدار بمعنى أن يتم

تخصيص حجرة في الغالب تكون مطله على الشارع يتم عمل باب بها، ومن ثمَّ تصبح محل وهذه المحلات تحوى أرففها على أبسط الأشياء تستطيع أن تقول أنَّها الأشياء الضرورية فقط التي يحتاجها الدار حتَّى الحلويات والأصناف المفضلة للأطفال ليست بالكثيرة إنَّما تقتصر على بعض الأصناف القليلة كذلك فأن سوق السبت يمثل متنفس هام جدًا لهم ولأهالي القرى والنجوع الأخرى المجاورة حيث يأتي التجار من كافة مراكز المحافظة ومن المحافظات الأخرى، حيث اللحوم البلدي الطازجة التي تذبح أمام أعينهم والفاكهة الطازجة التي تكون حصريَّة على السوق حيث لا يمكن أن تتواجد في أي محل داخل النجع كذلك المملوحة الأكلة المفضلة لديهم في الغداء يوم السبت والحلويات خاصة الحلاوة الطحنية والهريسة والبسبوسة اللتان يغرقا في السمن البلدي والخضراوات الصابحة وجميع أنواع البقوليات كذلك فأن الكثير منهم يقوم بتربية المواشي والطيور ويكون السوق معرض مناسب لعرض ما جنت أيديهم من شقاء وكد ونستطيع أن نحزم أن جميع الأسر سواء كانت غنية أو فقيرة لا بد وأن يذهب أحد منها إلى السوق يشتري الاحتياجات حتَّى وإن لمْ يتواجد أحد كي يذهب فمن الممكن أن ينوب أحد عن الأسرة سواء كان جار أو أحد الأقارب طقوس معتادة تمارس في ذلك اليوم بدء من الساعة السادسة صباحًا بالنسبة إلى الرجال فأنَّهم يمتطون الحمير

أمَّا النساء يستقلن السيارة الربع نقل التي يمتلكها بعض الأهالي ويستفدون من ذلك اليوم عن طريق توصيل النساء من النجع إلى السوق والعكس نظير أجرة متفق عليها.

من بين هولاء عدلي الذي يمتلك سيارة ربع نقل ويا لها من سعادة كان يشعر بها في ذلك اليوم حيث يعمل بالسيارة من السادسة صباحًا وحتَّى الثانية عشرة ظهرًا يخرج في ست ساعات فقط بمبلغ ليس بالكثير لكنَّه يجد فيه نواة يضعها على أقرانهم من الأموال.

عدلي رجل شديد الشح يستطيع أن يجعل من الفسيخ شربات كما يقال كذلك فأن قاموسه لا يوجد فيه كلمة مجاملة حيث أنَّه يأخذ أجرة من أية أحد سواء كان قريب أو غريب حتَّى أن البعض يطلق عليه النكات بأنَّه من الممكن أن يأخذ أجرة من زوجته إذا ركبت معه.

****

يمتلك الشيخ عمران المنفذ الوحيد لتوزيع السلع التموينية في النجع وعلى الرغم من أن نشاط المحل ليس سلع تموينية فقط وأنَّه يربح الكثير من التجارة في الكيماوي والكسبة (علف المواشي) إلَّا أن السلع التموينية كانت السبب الأساسي في نمو وتفحل ثروته.

إذا رجعنا إلى الوراء قليلًا حينما كان عمران شاب بعد أن توفي أبيه

ترك له أرض زراعية لكن الأرض مهما كان حجمها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تجعل منه الثري الأول في النجع بل ومن أكثر الرجال في المركز ثراء؛ والسبب الأساسي في ذلك يرجع لسنوات طويلة عندما فتح محل لبيع السلع التموينية واستغلال ذكاؤه الحاد ونقطة ضعف الكثير من أهالي النجع المتمثلة في السذاجة، والجهل حينما كان يختصر من الحصة المقررة لكل أسرة، ويظفر بفارق السعر عندما يبيعها لصالحه, وأيضًا من الأشياء الهامة التي يجب أن نذكرها هو المكسب الكبير من بيع الدقيق لما للدقيق من أهمية كبيرة واِعتماد أهل الصعيد عليه حيث إنَّهم يخبزون في منازلهم لذلك كان سعر الدقيق مرتفع جدًا عن المدن حيث يقوم عمران بشراء الدقيق من أفران الخبز في المدن بسعر أقل ويضعه في صندوق سيارة النقل ثمَّ يضع عليه أقفاص مليئة بالبرتقال، أو الطماطم، أو أشياء أخرى وكان ذلك يتم في سرية تامة وفي جنح الظلام حتَّى لا يعرف أحد في النجع وشيئًا فشيئًا نمت ثروة عمران وصار يتاجر في الكيماوي والكسبة والسلع التموينية ويحوز الأرض الصحراويَّة المجاورة للنجع دون مقابل يزكر ومن ثمَّ يستصلحهما ويبيعهما بالآلآف أو يقوم بزراعتهما كل هذه العوامل تضافرت وجعلت من عمران على ما هو عليه الآن.

ورث هريدي عقليه أبيه وصار مثله تمامًا وحقًا من شابه آباه فما ظلم.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل وها هو يقف أمام الشيخ عمران الذي يجلس في المندرة وأمامه الشيشة ويبدو عليه القلق ليقول:

- حمدًا لله على سلامتك.

- الله يسلمك يا أبويا.

- ماذا فعلت؟

- كله تمام يا أبويا الشحنة في السيارة في الخارج

دلف الشيخ عمران إلى الخارج ليجد السيارة النقل تقف أمام المنزل معبئة ببرتقال صغير ليقول:

- اذهب بها إلى المخزن واجعل العيال يعبوا البرتقال في أقفاص ليأخذها التاجر غدًا والدقيق شونه في المخزن الذي في الأسفل. . . نظر إليه ثمَّ أكمل. . . ما حجمها هذة المرة.

-١٠٠ شِوال يا أبويا.

- تمام السعر مثل كل مرة؟

هزَّ هريدى رأسه ثمَّ قال:

- نعم، لكن التاجر كان يريد أن يزود السعر.

- عمومًا أنا سوف أتصل به وأعرف ما الحكاية، توكل على الله.

استقل هريدي السيارة واتجها إلى المخزن ثمَّ دخل الشيخ عمران الدار ثمَّ صعد إلى حجرة الحاجة نجية ليخلع العمة والجلباب ويعطيهم للحاجة نجية التي تقول:

- هل حضر هريدي؟

- نعم وذهب إلى المخزن.

- الحمد لله.

- جهزي العشاء.

- حاضر يا سيد الرجالة.

****

رغم أن البنات في الصعيد لا يحظين بما يحظى به الشباب في كافة الأمور سواء كانت مادية أو معنوية لكن ذلك لا يمنع من وجود بعض الآباء الذين تكون الفتاة فيه تاج على رأسه يحافظ عليها ويصونها ويكون أكثر حنانًا وعطفًا على البنت من الولد كلًا على حسب ما نشأ عليه وترعرع.

كانت فهيمة تضع الحطب والبوص داخل الفرن البلدي حتَّى تشعلها وابنتها نسمة تساعدها في ذلك حين قالت:

- أو لم تعرفي ما حدث؟!

نسمة في دهشة!

- لا. . . ماذا حدث يا أمي؟

في حسرة وسخرية وقد أمسكت بالحطب وقذفت به في بطن الفرن حتى توهجت النار أكثر من حسرة فهيمة.

- المعدول يريد أن يخطب.

تسمرت نسمة في مكانها حاملة على يديها البوص وقد دهشت

ثمَّ قالت:
- ماذا تقصدين يا أمي؟
نظرات إليها ثمَّ أشاحت بوجهها وقالت:
- يعني لا تعرفين من هو؟! الذي يشغلك وفرحانة به كنا نعتقد أنَّه بني آدم!
ألقت نسمة البوص من يديها والدموع تكاد تفر من عينيها ثمَّ جرت إلى غرفتها لتقوم أمها من أمام الفرن وتلحق بها لتراها وقد ارتمت على السرير وراحت في نوبة بكاء حيث دفست وجهها في الوسادة لتأتي أمها وربتت على ظهرها، وقالت:
- لماذا تبكين أنتِ أحسن شاب في النجع يتمناكِ.
لم تجيب نسمة إنما رفعت وجهها ثمَّ مسحت دموعها التي بللت الوسادة!
- أنا قلت لكِ كثيرًا أنَّه مثل القرع يمد لبرة. . . صمتت قليلًا ثمَّ أكملت في غضب مكبوت في واحد يترك ابنة عمه التي مثل القمر ويخطب واحدة أخوها عصبجي وحرامى وفيه كل العبر لكن ماذا نفعل؟! أبو شكله
في حزن هي تحاول تجميع كلمات والسيطرة على مشاعرها.
- لا يا أمي لا تقولي هذا على حمدان مهما كان أنَّه اِبن عمي.
في حدة:
- لازلتي تخافين عليه يا هبلة اِبن عمك واِبن خالك أنتِ تنسيه

تمامًا وإن شاء الله يأخذك الذي يستحقك
صمتت بسمة ثمَّ وضعت وجهها بين كفيها إنَّها حقًا تحبه بل وتعشقه مرت عليها الأيَّام والشهور والسنوات وهي محتملة عبء حبه في صبر رغم أن مظهرها لا يوحي أبدًا بشيء, فقد كانت مخلوقة ضاحكة ذات مظهر مرح لكن أثقل الحب قلبها لترفع رأسها، وتقول:
- أنا لن أتزوج الآن.
في سخط وحدة!
- لماذا؟ من أجل اِبن وهيبه تترهبنش؟ اِمسحي دموعك وانهضي حتَّى نكمل الخبيز وحياتك عندي لأزوجك واحد أحسن منه ألف مرة على الله ضحى بنت عبد الفضيل تنفعه أو يسرق مع أخوها عسران الحرامي.

****

كان ولا زال زواج أحد افراد عائلات (فلاحين الصعيد) من فتاة تنتمى لعائلات الهوارة أمر شبة مستحيل خاصة، وأن كان كلا العائلتان يقطنان نفس القرية ذلك شيء مفروغ منه تمام، وحدوثه مستبعد حتَّى وأن كان ذلك الشاب حاصل على مؤهل عالي أو ثري أو ذو أخلاق حسنة كل ذلك لا يشفع له وقد نجد أن والد الفتاة يرفض شاب فيه جميع المميزات في حين يقبل أن يزوجها من شاب أخر ربما يكون عاطل أو سيء السمعة لا

لشيء إلا من أجل التمسك بتقاليد وأعراف نشأ عليها وإن جازف وفعل العكس لاحقته اللعنات والمعايرة وتبرأت منه العائلة وصار منبوذًا بينهم حينما صرح حمدان لأبواه بأنَّه يحب ضحى ويريد أن يتزوج منها كان وقع الكلام عليهما شديد حيث حدثت لهما صدمة، وظلَّا فترة ينظران إلى بعضهما دون أن يتكلما لكنهما لمْ يلبثا أن سلما برغبة ابنهما ووافقان أنَّه فلذة كبدهما لمْ لنْ يدخرا جهدًا أو شيء من أجل إسعاده والسهر على راحته حتَّى وأن بدا ما قاله ويحلم به درب من المستحيل وهما على علم تام بذلك لكن ما باليد حيلة.

في المندرة يجلس حمدان وأبوة الحاج عبد الكريم على الدكة بجوار بعضهما وفي الجانب الآخر تجلس الحاجة وهيبة على حصيرة فرشت على الأرض مستنده بظهرها على الحائط لتقول الحاجة وهيبة في لهجة حانية مطمئنة:

- إن شاء الله يوافقون لا يوجد أحد أحسن منك يا بني

وهو يهز رأسه غير راضٍ مستنكرًا!

- يوفقوا هذة ورطة. . . نظر إلى حمدان الذي شعر بالخجل والحزن لينظر في الأرض وتقول الحاجة وهيبة.

- لماذا لا يوفقون ابني زينة شباب النجع؟!

الحاج عبد الكريم:

- على خيرة الله هيا بنا.

نهضت الحاجة وهيبة وأخذت تدعوا لهما وهما يأخذان طريقهما إلى دار عبد الفضيل أثناء الطريق لمْ يقطعْ أحدهما الصمت الذي خيم عليهما فكلاهما لديه ما يفكر فيه ويشغله عن الآخر حمدان يفكر في ضحى وحلمه بالزواج منها, عرف الحب طريقه إلى قلبهما منذ أيام الطفولة وتغلغل داخلهما من الممكن أن لا تكون ضحى أجمل وأحسن من في القرية جمالًا ونسبًا لكنه ذاب في عشقها أمَّا الحاج عبد الكريم لما لديه من خبرة يدرك، ويعلم جيدًا أن محاولة خطبتها أشبه بمن ينفخ في قربة مقطوعة وأن موافقه عبد الفضيل وعسران ضرب من المستحيل أنَّه يعرفهما جيدًا لطالما عانى من العنجهية والكبر الذي يملأ صدرهما.

أمام الدار توقفا وراح الحاج عبد الكريم يطرق على البوابة ليفتح له محمود عسران (طفل صغير لم يتعدى عشر سنوات) ليقول الحاج عبد الكريم في حنان وهو يربت على خده.

- كيف حالك يا محمود؟

- الحمد لله يا عم عبد الكريم.

- أبوك موجود يا محمود؟

وهو يهزَّ رأسه:

- نعم.

- قول له الحاج عبد الكريم وحمدان يريدان أن يقابلوك.

خرجت سعدية زوجة عبد الفضيل لتقول في ترحاب وهي تضع

طرحة على رأسها.
- أهلًا يا حاج عبد الكريم اتفضلوا.
دلفا إلى داخل المندرة ذات الحوائط الشبه مهدمة دهان حوائطها من الجير بها دكتان متهلكتان عليهما (كليم) قديم مهترء كانت المندرة جانب البوابة جلسا إلى جانب بعضهما على دكة التي راحت تصدر أصوات وكأنَّها تستغيث من الحمل التي صارت غير قادرة عليه.
نظر إلى بعضهما وهزَّ الحاج عبد الكريم رأسه في عدم رضا وما لبث أن دخل عليهما عبد الفضيل لينهضا ويسلما عليه ليقول:
- أهلًا كيف حالك يا عبد الكريم؟
في ابتسامة!
- الحمد لله أنت كيف حالك؟
جلسوا ثمَّ قال عبد الفضيل:
- نحمده وأنت يا حمدان؟
- الحمد لله ربنا يخليك يا عم عبد الفضيل.
جلس عبد الفضيل ثمَّ وضع رجله على الدكة، واتكأ قليلًا ثمَّ قال وهو يلوي شفتيه.
- نحضر غداء؟
هزَّ الحاج عبد الكريم رأسه في عدم اِرتياح ثمَّ قال:
- ربنا يبارك فيك اِتغدينا منذ قليل.

عبد الفضيل في صوت جاهوري:
- الشاى يا محمود.
خفق قلب ضحى في شدة عندما عرفت بوجود حمدان وأبيه عندهم إنَّها تعرف سبب الزيارة لكنَّها تخش من النتيجة حاولت قدر الإمكان أن تسترق السمع محاولة عدم لفت انتباه أمها أو أي أحد أثناء ذلك كان عسران قد دخل عليهما ثمَّ صافحهما وجلس إلى جوار أبيه وراح ينظر إليهما في غضب، وقد عقد جبهته قائلًا وهو يلوي شفتيه.
- شرفتونا يا حاج عبد الكريم.
- يشرف مقدارك يا عسران.
عبد الفضيل:
- خلصت كلية يا حمدان؟
حمدان متفاخرًا.
- نعم يا عم عبد الفضيل أنا حصلت على لسانس اقتصاد وعلوم سياسية.
عبد الفضيل:
- ما شاء الله!
عسران في سخرية:
- ليسانس ولا بَكالوريوس كله مثل بعضه ليس لهم قيمة بيتركنوا على الرف.

رمقه حمدان في نظرة غضب، وقال محاولًا تملك أعصابه في هدوء.
- كيف هذا؟! التعليم والمؤهلات العليا لهم أهمية كبيرة وهو يهز رأسه في استهزاء!
- أنت ممكن أن تتعين أو تعمل بتلك الشهادة؟
قبل أن يتكلم حمدان دخل محمود بالشاي ليقول عبد الفضيل:
- اِتفضلوا الشاي.
تناول حمدان كوب الشاي ثمَّ أخذ رشفة، وقال:
- ليس مهم التعين المهم أن يكون معك شهادة والحمد لله نحن لسنا في حاجة إلى الوظائف يكفي أن أزرع الأرض وأراعي مصالحنا.
خيم الصمت لحظات لم يتخللها إلا رشفة شاي من أحدهم ليقول الحاج عبد الكريم في تردد:
- نريد أن نخطب ضحى لحمدان.
ظهرت الصدمة والغضب على وجه عسران ليكمل الحاج عبد الكريم:
- نحن لا يمكن أن نجد أحسن من ضحى ست البنات حسب ونسب ما رأيك يا عبد الفضيل؟
نظر عبد الفضيل إلى عسران في دهشة، وقبل أن يتكلم قال عسران في غضب وحدة!
- لا يوجد بنات عندنا للزواج ضحى تكلم عنها ابن عمها ونحن

وافقنا.
بعد أن انتهى عسران أشاح بوجهه واتكأ عبد الفضيل في صورة شبة كاملة ثمَّ عوج العمة إلى الأمام وأخذ رشفة شاي ليقول الحاج عبد الكريم في صوت حزين وهو ينظر إلى حمدان الذي تملكته الصدمة.
- على البركة هيا بنا يا حمدان.
نهض الحاج عبد الكريم وحمدان الذي بدا غير مقتنع ومصدق ليقول عبد الفضيل وهو لا يزال متكأً في استهزاء وتقليل من شأنهما.
- شرفتونا!

****

بمجرد أن خرج حمدان وأبيه وإغلاق عسران البوابة خلفهما في قوة حتَّى كاد أن يكسرها ليكشر عن وجهه الذي اكتسى باللون الأحمر من شدة الغضب والغيظ ويكاد الشرر يتطاير من عينيه ومن ثمَّ هجم على الحجرة التي تتواجد بها ضحى ليدفع الباب بقدمه في قوة لينفتح في عنف أثناء ذلك كان أبيه يلحق به وينادي عليه في صوت عالي.
- عسران. . . عسران.
اختلج قلب ضحى بالخوف والذعر أنَّها تعرف مدى الجرم الذي اقترفته من حبها لحمدان، ومن حين لآخر يحدث بينهما شجار

حيث الشكوك التي تساوره والكلام الذي يلتقطه من هنا وهناك لكنَّه لمْ يستطع أن يمسك عليها شيء ومع ذلك كانت لا تسلم من يديه وبطشه وأحيانًا كثيرة لولا وجود أبيها وأمها لكان فتك بها وتخلص من (عارها) كما يقول دائمًا:

فتح الباب في عنف، وقال في حدة:

- ما الذى بينك وبين اِبن الكلب هذا؟

وهي ترتعش، وقد همّت واقفة.

- لا يوجد شيء بيني وبينه.

أمسك بخرزانة ومن ثمَّ قام بضربها في كتفها في قوة لتصرخ ضحى، وتقول في تحدي:

- لماذا تغار منه جاء يطلبني على سنة الله ورسوله؟

وهو يرتعش من فرط الغضب وجسده ينبض بذرات النار!

- أنتِ موتك على يدي.

سريعًا قام برفع العصا واستعد لضربها حتىَّ أمسك أبيه بيده، وقالت أمه التي أتت تهرول!

- لماذا كل هذا؟

في حدة أبعد عسران يد أمه قائلًا:

- الستِ تعرفين سيرتنا صارت على كل لسان كنت أكذب ما يقال إلى أن جاء اِبن الكلب هذا وبكل بجاحة يطلبها للزواج الفلاح الواطي عاوز يناسب أسياده!

ضحى في تحدي محاولة التغلب على خوفها والدموع التي تنهمر من عيناها.

- من هم أسياده إنَّه حاصل على بَكالوريوس مؤهل عالي، وعندهم أرض وأخلاقه حسنة.

في حدة، وعصبية قال عبد الفضيل:

-اِخرسي يا بنت وأنت يا عسران اِتركها الآن.

سعدية:

- نحن نزوجها لأول واحد يخطبها.

عسران:

- هذا آخر دلعك فيها يا أبوي.

عبد الفضيل:

- كل شيء انتهى ولا يوجد دلع بعد الآن، أو حتَّى خروج من الدار وإن لم تسمع الكلام سوف أدفنها حية.

****

من دفئ حضنها يستمد الأمان، ومن جسدها البض يرتوي من ظمأ الأيام تلك حالة حب وعشق أضحت تتملكه ولن تفلته أبدًا أمسكت فايزة بلجام حياته وتلابيب عقله صارت لسانه الذي يتكلم وعيناه التي تبصر وأذنه التي تسمع كم من الأيام مرت ظن فيها علي أنَّه أشبع غرائزها لكن هيهات أن يفعل كان تسلم له جسدها لكن قلبها، وعقلها يلفظه ويتأفف منه تشمئز

من أنفاسه اللاهثة وجسده الوهن إنَّها تبحث عن المتعة تريد الفحولة الكاملة التي تشبع غرائزها وتجعلها تتأود من شدة الألم واللذة تتوق لكلمات الإطراء التي يطرب لها قلبها، وتجعلها تشعر بأنوثتها التي يحسدها عليها الكثيرين.

أطالت النظر إلى المرآة، وراحت تتمعن في جسدها وتداعب خصلات شعرها الأسود القاني كالليل اشتكى من فراق القمر ثمَّ أمسكت صدرها وحركته يمينًا ويسارًا وراحت تمرر يدها على مؤخرتها البارزة الممتلئة جاذبة طرفي القميص حتَّى برزت تضاريس جسدها إنَّه سلاحها الفتاك الذي تثق به كثيرًا ولا يمكن أن يخذلها عندما تحتاج إليه كانت فايزة شديدة الثقة بنفسها وتدرك جيدًا أن هذا هو الطريق الذي قد يوصلها إلى محطة تطلعتها المادية والجسدية لطالما ألح عليها سؤال لماذا تكون أسيرة في معتقل مفتاحة في يد من لا يستحقها لمْ يمضِ سوى دقائق معدودة كالمعتاد حاول فيها علي جاهدًا أن يضاجعها بكل قوة لكنه أبدًا لمْ يفلحْ كان يظن ذلك لكن في حقيقة الأمر أن ما كان يفعله هو إيقاظ غرائزها ثمَّ سريعًا ما ينهار أمام أنوثتها الطاغية وكالكثير من النساء تتغلب دائمًا العاطفة على أفعالهن وقراراتهن إنَّها لمْ تكنْ مقتنعة به ولمْ يكنْ أبدًا في مخططاتها أن تقبل به زوجًا لكنَّها رضخت لرغبة أبيها مع أنَّه حاول كثيرًا أن يمنحها السعادة ولمْ يستطعْ بل أنَّه ترك لها لجام حياته، وصارت هي من يصدر

الأوامر وعليه السمع والطاعة حتَّى أضحى عبدًا لشهوة فرجها كانت تفرح جدًا عندما يمتدح أحد جمالها وتحاول بكل السبل إبراز مفاتنها متفحصة بعين الإعجاب وجهها وقوامها كانت تجد في هذه المميزات ما يستحق التفاخر كانت دائمًا تتصيد أي هجوم عاطفي يقتحم خلوة قلبها.

****

كان هدف عدلي الوحيد وشغله الشاغل في الحياة جمع المال وتكنيزه إنَّها اللذة التي سخر حياته لها لا يجد متعة إلَّا في رائحتها حتَّى أنَّه زهد في كل شيء أمام نشوته اللامحدودة وبريق عيناه عندما يمسك برذم النقود ويستنشق رائحتها كمدمن في مراحل متأخرة من الإدمان.

من بين تلك الاشياء التي زهد فيها نجدي، زوجته بسيمة التي صارت بعد فترة ليست بالطويلة من زواجهما تمامًا كأخته عندما يسخي عليها يزور مخدعها مرة في الشهر محاولات عديدة، وحثيثة أن تثير شهوته لكن هيهات أن تفلح.

شيء واحد فقط يكاد يقارب حبه للمال أَلَا وهو الطعام حيث أنَّه يظل يأكل كل ما لذ وطاب يوميًّا في نهم وشراهة حتَّى لا تكاد تقوى أرجله على حمل (كرشة) الذي بدأ كبالون ضخ فيه كمية هواء زائد حتَّى صار كبطة بلدي ثمَّ تزغيطها لأسابيع عديدة.

ما كان من بسيمه إلَّا أن أطلقت العنان لشهوتها وراحت تبحث

عن الرجل الذي يروي ظمأ جسدها ويشعرها بأنوثتها الضالة من أثر الهجران وشيئًا فشيئًا ذاع صيتها وبدت محترفة وخبيرة منحكة تعرف تصطاد زبائنها، وصار الأمر لا يتوقف على الإشباع الجنسي إنَّما أيضًا كانت تحصل على المال الوفير من ذلك الذي كانت تسد به فراغ الشح، والبخل الذي تلاقيه من عدلي الذي بدا سعيدًا من ذلك حيث أنَّه لا ينفق إلا القليل على الدار مع ذلك فأنَّه يتمتع بأشهى الأطعمة والفاكهة وكل ما يتمناه ولا يأبه كثيرًا لكلام الناس الذي يتواتر هنا وهناك عن سمعة زوجته.
أخذ كمال عمران يطرق على باب بسيمه كما أعتاد أن يفعل في بعض الليالي ومن ثمَّ يلتفت يمينًا ويسارًا خشية من أن يراه أحد وأتى صوتها خافت من خلف البوابة.

- من؟

- كمال يا بسيمة.

أتت ضحكة خليعة من وراء البوابة وكأنَّها تزغرد فرحًا حيث أن كمال عمران يمثل لها شيء هام ماديًّا ومعنويًّا تحصل منه على ما تريد من نقود يغدقها عليها وتستغل يده الفرطة، وتنتظر لقاؤه بفارغ الصبر حتَّى تطلب منه أي شيء تحتاجه من ملابس كذلك معنويًّا فأنَّه يجعلها تزهو بنفسها وأنَّها لا تبيع نفسها لأي أحد إنَّما إلى كمال عمران زينه شباب النجع الذي يظهر لهفة وإقبال شديد عليها فهذا مدعاه للفخر والتباهي بأنوثتها وحجة مقنعة

لضميرها عندما يئن عليها رافضًا الحرام.
ما أن دخل كمال وأغلق الباب حتَّى أنقض عليها واحتضنها في قوة وأخذ يداعب نهديها المتوهجان بنيران الرغبة ثمَّ أطبق عليها حتَّى تأودت هامسة في صوت مهتدج.
- براحة يا حبيبي.

****

في جنح الظلام ينشط عسران إنَّه بومة الشؤم التي تنقض على كل ساقط، ولاقط في نظر حاد وأعين ثاقبة تراقب الفأر وتنقض عليه تمامًا كما يفعل عسران عندما يختار ضحيته من ضعفاء القرى ينقض عليهم في غفلة متخذًا من الليل ستارة حاجبة لوجه الأكلح ومع ذلك فإنَّه يمتلك حيل شيطانية يلاعب بها من يقع عليه الاختيار, من بين هؤلاء والذي يمتلك الشروط القياسية المؤهلة تمامًا لذلك من سذاجة وضعف والأهم منزل شبه مهجور بسبب خلافه وشجاره الدائم مع زوجته الذي يؤدي إلى ذهابها لمنزل أبيها، ومن غير ضاحي يمتلك كل هذا؟! بدأت الخطة المتفق عليها حيث أخذ الفار يراقب الطريق كالعادة وعنتر أمسك ببلطة وأخذ يثقب في الجدار المبني من الطوب الطيني بحيث يكون فتحة تسمع بمرور شخص وبعد عدة ضربات سريعة في قوة انتهى ودخل عسران وأبوزيد وعنتر وانتشر الثلاثة سريعًا في الدار ولمْ يجدوا شيء ليقول عسران لعنتر وقد وقف في حالة ضيق.

- احفر في الأرض يا عنتر.
نظر له عنتر ثمَّ قال:
- غير مستبعد ممكن اِبن الكلب يكون دفن المال في أرض الغرفه وأمسك عسران وأبوزيد بالسرير الحديدي ذو الأعمدة الأربع وأبعدوه ثمَّ أخذ عنتر يضرب الأرض بالبلطة في قوة حتَّى صارت الحجرة كأرض حرثت للتو كل ذلك المجهود الذي جعلهم يتصببون عرقًا لمْ ينتجْ عن شيء سوى (صحن بصارة) كانت زوجة ضاحى أعدته قبل الذهاب إلى بيت أبيها وما كان من أفراد العصابة إلَّا أن يلتهموه ليفضوا فيه غضبهم وأحباطهم وكعادته التي يتبعها عند كل سرقة دخل عنتر الحمام لكي يتبرز لعلها تكون ذكرى لأصحاب الدار, رفع جلبابه وجلس وبعد قضاء حاجته قام بغسل وجهة من تراب الحفر والنقب ثمَّ أمسك بمنشفة علقت على شماعة في الحائط لكن لفت اِنتباهه لفافة من القماش خلفها، قذف بالسيجارة ثمَّ أمسكها وجد داخلها كيس بلاستك، وكانت المفاجأة السارة في انتظاره حيث كانت تحوي على النقود التي أنهكتهم بحثًا صاح عنتر على عسران ويكاد يطير فرحًا (وجدتها يا كبير).

****

في الصعيد قد ترى طفل لمْ يتعد الثانية عشر من عمره يلهو ببندقية ألية تمامًا كما يلهو قرنيه في المدينه بمسدس ماء لذلك

فإن الثأر لا يبتعد كثيرًا عن تجارة السلاح مفاهيم تزكى ورماد ينفخ فيه حتَّى يصبح نار متوهجة تأجج مشاعر الحقد والغل وروح التعصب.
أحيانًا يتطرق إلى ذهنك سؤال لماذا لمْ يوضعْ قانون رادع للقضاء على الثأر، عندما تعلم أن تجاره السلاح تعد من أهم مصادر الربح السريع وتفحل الثروة تكون أجبت على تساؤلك.
يعد عبد الصبور عضو مجلس الشعب الأخ الشقيق للشيخ عمران من كبار تجار السلاح في المحافظة ورث المال والنقود والصيت عن أبيه ولمْ يكذبْ خبرًا استغل ما لديه أحسن ما يكون، وكان يقول دائمًا عندما يأنبه ضميره أنَّه سبب أساسي وعامل محفز للثأر -أن الناس يهابون القوى ذو المال والمنصب قد يعطفون على الضعيف ذو الأخلاق لكن لن يهابونه-. إن المال هو الهيبة والنقود تشتري كل ضمير خرب إنَّه منفذ هام لمن يتبغون القتل، وينشدون الموت لحنًا يطرب قلوبهم المتحجرة كان دار عبد الصبور أقرب ما يكون إلى القصر منه إلى دار حيث الفخامة والأعمدة المستديرة التي تقف شامخة في استقبال كل زائر.
كان يجلس على الدكة في الصباح الباكر وأمامه الشيشة حينما دخل عليه الشيخ عمران الذي راح يصفق بيديه قائلًا:
- يا حاج عبد الصبور
نهض عبد الصبور وعانق الشيخ عمران ثمَّ قال:

- يا مرحب يا عمران أين أنت يا رجل؟!
- تحت النظر أنت الغير ظاهر؟!
هزَّ رأسه ثمَّ جلس.
- والله مشغول يا عمران.
وهو يهز رأسه ثمَّ أمسك باللي الشيشة وأخذ نفس ثمَّ قال:
- الله يكون في العون.
أثناء ذلك أنطلق طفل صغير لمْ يتعدَ الثامنة قائلًا في لهفة:
- عمي. . . عمي.
ابتسم الشيخ عمران وصافح الطفل ثمَّ قبله وأخرج نقود من حافظته، وقال:
- كيف حالك يا عادل؟
نظر عبد الصبور إلى عادل، وقال:
- قول لهم يجهزوا غدًا
- بارك الله فيك يا عبد الصبور اتغديت في الدار كنت أريدك في مصلحة.
أمسك عبد الصبور بالماشة وأخذ يدوس على قطعة الفحم التي على الحجر ثمَّ قال:
- ثأر جديد؟
- لا
أطال عبد الصبور النظر إلى عمران ثمَّ مسح على وجهه وقال:

- العيال إياهم؟
داعب عمران طرف شاربه ثمَّ أمسك باللي وأخذ نفس ووضع أصبعه على المبسم ثمَّ إتكأ وقال:
- تمام
- يريدون كم قطعة؟
- ١٠ قطع كلاشينكوف و١٠٠٠ رصاصة.
- طلبهم موجود لكن الحساب غير المرة الماضية.
- لماذا؟! إنَّهم زبائنا ومضمونين.
- البضاعة ارتفع سعرها كثيرًا وكل شيء بحساب.
- تمام لا يمكن أن نختلف متى نستلم؟
- في أقرب فرصة سوف أبلغك هز رأسه ثمَّ صمت قليلًا وأكمل. .
. ماذا فعلت في الانتخابات؟
- قلت لك كثيرًا لا تشغل بالك كل الأمور تحت السيطرة.
- يا عمران أنت تعلم ماذا تعني لنا عضوية المجلس هي الأمان والستارة التي تحجب عنا شر القيل والقال.
- يا ولد أبوي اعتبر أن الصناديق متستفة من الآن يا سيادة النائب.
قهقه عبدالصبور في زهو ثمَّ قال:
- تسلم يا كبير

****

- آه يا أبوي. . . يا خراب بيتك يا ضاحي.
أخذ ضاحي يرددها في نوبة صريخ وبكاء هستيري عندما ألم بالسرقة التي حدثت في داره ثمَّ جلس على ركبتيه وأخذ يهيل التراب على رأسه كان صوته يدوي في أرجاء النجع وسريعًا تجمع الأهالي حول الدار وكان البعض الآخر ينظرون من أعلى الأسطح لعلهم يتلصصون بمن حلت المصيبة التي جعلت صاحبها يصرخ ويولول كالنساء من بين هؤلاء حمدان الذي جاء في عجالة قائلًا:
- هدي نفسك يا عم ضاحي
في حسرة، وهو يختلج مرارة!
- اهدي نفسي. . . . يا حمدان تحويشة العمر اتسرقت!
أحد الرجال:
- في أحد يترك تحويشه العمر في الدار.
لا يزال ضاحي منكب على ركبتيه وفي حالة بكاء ليمسك حمدان بيديه محاولًا إيقافه وهو يربت على ظهره بينما قال بعض الرجال:
- يعوض عليك ربنا يا ضاحي!
راح حمدان يربت على كتفيه ثمَّ قال:
- لا بد أن تبلغ البوليس وتعمل محضر.
في أسى، وحصرة!
- هل المحضر سوف يأتي بالذي راح؟
هزَّ رأسه وأغمض عيناه وراح يتذكر الماضي حينما كان يعمل

بالساعات الطويلة في الفاعل يحمل قصعة الأسمنت على كتفه، ويصعد بها سقالة خشبية عدة أدوار لوهلة يظن أن لا نهاية لها تكاد أرجله لا تقوى على حمله, عندما يتلقفها الأسطى منه ويفرغها في العامود يشعر كأن روحه ردت إليه, ليالي طويلة مرت عليه جسده الضئيل يئن بالألم من شدة الإجهاد وكتفه ينزف دمًا من أثر القصعة, مد يده أمسك كتفه وأخذ يتحسس أثرها لتكن شاهدة على ما كان يعانيه كل ذلك نظير يومية لا تتعدى بضعة جنيهات يدخرها ويستقطع من بطنه حتَّى يجمع المال، أيام كثيرة كان غداءه المش ورغيف شمسي وفحل بصل لمْ يرحم توسلات نفسه وصرخات أمعاءه لمْ يحنْ عليها إلَّا فيما ندر هز رأسه، ووضع يديه على رأسه وراح يردد -يا خراب بيتك يا ضاحي-!

****

خلف مكتبه الذي وضع في منتصف حجرة صغيرة تعبأت بدخان كثيف أثر دخان السجائر التي تشتعل متلاحقة من ضابط مباحث النقطة الذي راح في نوبه سعال متقطعة مصحوبة ببصقة تكتظ ببلغم في منديل ورقي أعقبها رشفة من زجاجة دواء كحة ثمَّ مسح فمه ثمَّ قال في حدة للثلاثي الذين يقف أمامه (أبوزيد-عنتر-الفار) وورائهم ثلاثة عساكر مدججون بالسلاح.

- ألستم تريدون الاعتراف؟

في نفس واحد:

- والله يا محمد بيه نحن ليس لنا يد في تلك السرقة.
في صوت جاهوري، وقد أخذ يضرب بقبضة يده على المكتب.
- تحلفون كذب؟! ماذا أفعل بكم؟
ساد صمت لحظات ثمَّ أكمل في اِنفعال.
- أين عسران؟
- لا نعلم يا محمد بيه.
- شاويش أبوالروس.
سريعًا وفي حركة ألية قال الشاويش أبو الروس الذي بدا ضخم البنية.
- تمام يا أفندم.
لمْ يكدْ يكمل الضابط حتَّى اِلتف مجموعة من العساكر حولهم ثمَّ خرج الشاويش أبوالروس وسرعان ما عاد وخلفه عسكريان يحملان فلكة وقد راحا يجرجران في أقدامهم من نقلها حتَّى وضعوها أمام المكتب ومن ثمَّ أمسك العساكر بأبو زيد الذي راح يستعطف الضابط قال:
- والله يا بيه أنا لمْ أفعلْ شيء. . . لكن الضابط قال وقد جلس على حافة المكتب ثمَّ أخرج سيجارة وأشعلها وقال:
- أنا أعرفكم يا كلاب أمسك عسكريان أبو زيد من رجليه ثمَّ رفعوه عاليًا وقاموا بقلبه بحيث أصبحت رجليه في الأعلى ورأسه في الأسفل وما أن فعلا ذلك حتَّى نزل الجلباب إلى أسفل وتعرت

مؤخره أبو زيد حيث أنَّه لا يرتدي سروال وضجت الحجرة من الضحك، وقال الضابط وهو يقهقه!

- الله يخرب بيت أبوك علق البهائم أولاد الكلب هؤلاء من أرجلهم!!

****

- نحن سوف نظل طلية عمرنا هفية يا عم عبد الكريم

قالها ضاحي الذي يجلس على الدكة في مندرة دوار الحاج عبد الكريم وقد بدا في حالة سيئة رث الثياب محمر العينان جلبابه ممزق عند فتحة الصدر.

وهو يهز رأسه في أسى وحزن قال الحاج عبد الكريم:

- أمر الله يا بني.

حمدان في حسم، وغضب مكبوت.

- لكن ربنا لا يرضى بالظلم يا أبويا نحن الذين فرطنا في حقنا من زمان حتَّى ركبونا.

مسح الحاج عبد الكريم على وجهه، وقال في صوت هادي ضعيف.

- الظلم له يوم يا بني لكن بالصبر ومن غير تهور

أخذ ضاحي يضرب على الأرض بالنبوت الذي في يده في قوة وعنف صائحًا في صوت يختلج حسرة ومرارة.

- وأنا ماذا أفعل في هذة المصيبة؟ الدار لا يوجد فيه ولا مليم. . .

تحويشة العمر راحت عليه العوض ومنه العوض!
راح يبكي في حرقة لينهض حمدان، ويربت على كتفه قائلًا:
- وحد الله يا عم ضاحي.
أثناء ذلك دخل الحاج عبد الكريم إلى الداخل، ولا يزال ضاحي يبكي وحمدان يحاول التخفيف من عليه في عبارات حانية قائلًا:
- ربنا يعوض عليك يا عم ضاحي إن شاء الله تفرج وما لبث أن عاد الحاج عبد الكريم وفي يديه مبلغ من المال ليضعه في سياله جلباب ضاحي قائلًا:
- ربنا يعوض عليك يا ضاحي.
ابتسم ضاحي وحاول تقبيل يد الحاج عبد الكريم الذي رفعها سريعًا ليقول:
- ربنا يبارك فيك يا حاج!
الحاج عبد الكريم بمثابة كبير العائلة يلجأ إليه الجميع في كثير من الأمور كذلك فإنَّه لا يتوانى لحظة واحدة عن مد يد العون لمن يحتاج إليه طالما كان في استطاعته ذلك.
ليقول حمدان:
- لكن لا بد وأن ينال عسران وأبو زيد عقابًا على ما فعلوه ولا تفرط في حقك.
ضاحي بعد أن راق لحد ما جلس على الدكة قال:
- عسران هو المسؤل وزعيم العصابة وأنا سمعت أن الفلوس

معه.
زاغت عين حمدان وراح يهز رأسه في أسى محدثًا نفسه:
- ربنا يأخذه ونرتاح منه!
هزَّ الحاج عبد الكريم رأسه وراح يحرك فيها في بطء لأسفل وأعلى ويمينًا ويسارًا ثمَّ مسح دمعة جاهد نفسه لكي يحبسها ثمَّ قال في حرقة:
- القانون في بلادي لا يقوى إلَّا على الضعفاء أو كما قيل من أمن العقوبة أساء الأدب.

****

طالما وجد من يدعم ويساند المجرمين فمن المؤكد
أن يتمادى المجرم في إجرامه, الكل يدرك ويعلم أن من سرق منزل ضاحي، عسران ورفاقه, حتَّى ضابط المباحث وكل من في المركز حيث أنَّه من المستحيل أن يأتي أحد من خارج النجع ويسرق دار لا يعرف عنه شيء غالبًا ما يكون الحرامي على دراية كاملة بكافة تفاصيل موقع الجريمة، وبالتأكيد لا يكون غريب عن المكان بل تأتي دائمًا من المحيطون كان الشيخ عمران الذي يمثل القانون هو ذاته من يتعدى عليه لصالح البعض دون الآخر, فالهوى والقبلية تحكم دائمًا في هذا المجتمع حتَّى وأن نضج العقل وبدت الهيبه واطل الشيب, وبما أن السرقة كانت لمنزل أحد أفراد عائلة الفلاحين وأفراد العصابة السارقين من عائلات الهوارة فلا بد وأن

يحسم الأمر وأن ينتهي بجلسة عرفية دائمًا وأبدًا ما يصادر فيها حق الضعيف.

- -متشكرين قوي يا محمد بيه-.

قالها الشيخ عمران لضابط مباحث النقطة, كان يقف إلى جانبه أبو زيد والفار وعنتر الذين بدوا في مزاج رائق وحالة زهو ليقول الضابط:

- أنت تأمر يا شيخ عمران.

- الأمر لله يا محمد بيه.

في صوت حاد ونظرات صاخطة قال الشيخ عمران:

- أمامي يا بغل منك له.

تملك الغضب من الشيخ عمران الذي احتار كثيرًا فيما يفعله مع هؤلاء من داخله حقًا يحتقرهم ويريد أن يختفوا في غياهب السجون بلا رجعة لكنَّه في ذات الوقت أسير للعادات والعشم وغيرها من مفاهيم تمثل عبء ثقيل عليه ليقول وقد أربد وجهه إلى العبوس في غلظه وكأنَّه على وشك الانفجار.

- هذه آخر مرة أخرجكم من النقطة والله لولا أهاليكم لكنت تركتمكم مثل الكلاب.

****

٥

حقًا أنَّه الحب الذي يهز الكيان ويبدل الحال لا يفرق بين الغني والفقير القوي والضعيف الكل يرتوي منه ليضفي بريقًا وسعادة على من يتذوقه وحزنًا وهما على من يكتوي بنيرانه.
لا يزال يوجد لها مكان هامًا وحيزًا كبيرًا في قلبه، وأبصرت عيناه على بريق عيناها وسحر شفتاها تعلما كيف يتذوقا طعم الحب الذي عرف طريقه إليهما منذ نعومة أظافرهما حتَّى صار كمجرى الدم في العروق وعندما بلغا مبلغ الشباب أدركا أنَّهما، كان فعلًا صغار إنَّه الحب المستحيل, كتبا على أنفسها الشقا بعد أن فات الأوان كي يسيطرا على مشاعرهما.
بعد أن صدم في مشاعره وتمَّ رفضه صارحةً كان على حمدان أن يجلس بالساعات حبيس حجرته شاردًا مفكرًا في الشقا الذي وضع نفسه فيه لكن ما العمل كيف يتغلب على عقليات متحجرة، وتقاليد وأعراف ضاربة بجذورها سنوات طويلة في عمق قلوب وأفئدة من ساروا على منهج كتبه وأجدادهم في زمن غير الزمن.
فكر جديًّا أن يأخذ ضحى ويهربا حيث بلد لا تفرق بين أبنائها,

لكن سرعان ما كان يستعيد وعيه وعقله إنَّه يعلم جيدًا أن فعل ذلك سوف يقضي على مستقبله بل وعلى أفراد عائلته الذين سيدفعون ثمن انحراف قلبه, إنَّه نظام صارم يصعب على شاب في مقتبل عمره أن يقف أمامه متحديًّا كان قلب الحاج عبد الكريم ينفطر حزنًا على كسر قلب ابنه وسنده لكن ما باليد حيلة عليه أن يسلم بالأمر الواقع، وأن يخفى حزنه خلف ستارة حكها من الحكمة والعقل وليجد فيه الحزن بأسًا شديدًا حتَّى يستطيع أن يخرج حمدان من ذلك.

كان حمدان يجلس في غرفته البسيطة الأنيقة التي يوجد بها سرير صغير ودولاب ضرفتان وترابيز عليها بعض الكتب كان متكأ على جانبه الأيمن عندما سمع طرق على الباب وإذ بصوت أبيه:

- حمدان.

بين جدران حجرته ينعي حظه ويأنس بوحدته ولا ينطق إلَّا صمته إنَّها الحياة التي فرضت عليه وأجبر على أن تكون بين يديه, في لحظة ما تشعر أن الدنيا توقفت تمامًا دون الأحباب لا طعم لها، لماذا إذن يحيا؟ و قد صار اقترانه بمن أحب أمرًا مستحيلًا لكن سرعان ما يستفيق على صوت ضميره محدثًا نفسه -وعسى أن تكرهوا شيء وهو خير لكم-.

اعتدل في جلسته ثمَّ قال:

- نعم يا أبويا.

دخل الحاج عبد الكريم ثمَّ أغلق الباب وجلس قرب حمدان على السرير ثمَّ نظر إليه، وقال في هدوءه المعتاد.

- ما بك يا بني؟!

- لا يوجد شيء يا أبويا.

ربت الحاج عبد الكريم على كتفه ثمَّ قال في صوت حاني.

- كيف حالك يا حمدان؟

مسح حمدان على وجهه وفرك عينيك ثمَّ قال:

- الحمد لله يا أبويا.

هزَّ الحاج عبد الكريم رأسه ثمَّ قال:

- يا والدي أنا حاسس بك وأعلم أنك تحب ضحى لكن ما باليد حيلة أنت راجل ابني الذي افتخر به، وسندي وعكازي في الحياة الذي خلقها خلق غيرها كثيرين وأحسن منها، وبنات ناس طيبون ومحترمون.

في صوت ضعيف قال حمدان محاولات كبت دموعه التي تريد أن تنهمر صارخة من الحزن.

- أنا أعرف يا أبويا والحمد لله على كل شيء.

ربت الحاج عبد الكريم على ضهر حمدان ثمَّ قال:

- ربنا يبارك فيك يا بني ويبعد عنك أولاد الحرام.

****

إنَّه يركض خلفها لن يفلتها أبدًا إنَّها حلم الطفولة، كانت خفيفة

كريشة تحملها ريح عاتية أنهكت نفسه كما أنهكت قلبه، اعتادا أن يمزحا سويًّا منذ أن عاد من الجامعة يختلسا بعض اللقاءات التي يتغلفها الخوف والقلق خشية من أن يراهما أحد ويفتضح أمرهما حينها ستكون حياتهما على المحك لكن للقلب رأي آخر. راح يداعب شفتيها بأطراف أصابعه، ويمسح على خصلات شعرها المنسدل الذي يتطاير أثر نسمات هواء صافية في صباح أشرقت شمسه عليهما وقد زادت من لاهيب عشقهما احتواها بين أضلعه واحتضنها في قوة حتَّى شعرت بأنَّها تذوب بين يديه وظنت لوهلة أن جسديهما امتزجا في مزيد من الحب واللهفة كما امتزجت أرواحهما كانت تجلس إلى جانبه يضع ذراعه خلف رقبتها أصابعه لامست صدرها, أطالت ضحى النظر إليه، وأخذت نفس عميق وأخرجت من أعماقها زفير كالهيب فرن متوهجة أوقد عليها ساعات طويلة ثمَّ قالت، وقد تهدج صوتها:

- لا يا حمدان إلَّا هذا.

مسح على شعرها، وابتسم ثمَّ أمسك بأنفها وقال:

- هل تخافين منى؟!

وهي تبتسم وقد راحت تقبل أصابعه في حنان ورقة.

- أبدًا أنت حبيبي ونور عيني لكن لا أريد أن يحدث شيء يعكر صفو حبنا.

ضمها ثمَّ طبع قبلة رقيقة على جبهتها وقال:

- أنتِ روحي أنا أفديكِ بعمري يا حبيبتي.
وضعت وجهها بين يديها وحاولت أن تمنع دموعًا تريد أن تنهر لتغسل حزنها ليربت حمدان على كتفيها ويقبل يدها.
- لا تنعي هم إن شاء الله يكون في حل.
نظرت إليه في شوق ثمَّ قالت في صوت يقطر مرارة:
- أخي رافض تمامًا فكرة زواجنا وكاد أن يقتلني عندما أتيت لخطبتي لولا تدخل أبي.
نظر في الأرض ثمَّ أخذ نفس عميق ثمَّ هز رأسه في أسى، وقال:
- أنتِ حبيبتي، ولا يمكن أن أفقد الأمل في الزواج منك إن الله معنا.
كانت مشاعر الانكسار والحزن تملأ قلب حمدان, نعم إنَّه في حالة انهزام ما يمكن أن يفعله أكثر مِمَّا فعل, قهره التفكير وراح سؤال يتردد في داخله ماذا عليه أن يفعل؟! إن الزواج منها أضحى مستحيلًا كذلك أن يأخذها ويهربان سويًّا مستبعد تمامًا لديه.
لكن عليه أن يبدو صلدًا أمامها ولا يبدي أية مشاعر انهزام أو ضعف إنَّها دقائق قليلة يقضيها في صحبتها غير كافية لكي يشبع منها ومن أنفاسها الحارة أطالا النظر إلى بعضهما وبعد لحظات صمت مفعمة بالرغبة وقد شعر بوخزة ألم من فرط شهوته التي استعصت على أن يكبتها، وقد أحست ضحى بذلك لتقول وهي تهم واقفة في صوت خافت:

- أنا ذاهبة أراك على خير يا حبيبي.
أمسك حمدان بأطراف أصابعها وراح يمعن النظر فيها وقال:
- ما زال الوقت مبكرًا اِجلسِ خمس دقائق أخرى.
هزت رأسها وزاغت عيناها، وقالت متحاشية النظر إليه:
- لا يا حبيبي أخشى أن يراني أحد ويخبر أخي يعلم الله أنِّي أخاطر بحياتي عندما أقابلك.
نهض حمدان ثمَّ قال:
- يا حبيبتي أنا أخاف عليك من نسمة الهواء إن شاء الله سوف يكون فيه حل.
هزت رأسها على مضض ثمَّ قالت:
-إن شاء الله يا حبيبي.
اقترب منها ثمَّ همس في أذنها:
- سوف أظل أحبك حتَّى أموت.

****

أينما وجد الجهل تفشت الخرافات, طقوس وعادات تظل طويلًا وكثيرًا راسخة لأجيال دون التفكير في مدى اِتثاقها مع المنطق لكنَّها تتفق تمامًا مع قناعتهم واعتقادتهم كانت الأيام تمر على مقام الشيخ شعبان والتبة التي نصب عليها متشابهة, لا جديد إلَّا مزيد من الخزعبلات حيث تأتي النساء من شتى أنحاء النجع يوميًّا في الصباح الباكر, ثمَّ يفعلن أشياء تبدو لكل ذي عقل

كوميدية لحد كبير, ما أن تطئ أرجلهن أرض التبة, حتَّى يصعدن إلى الأعلى ثمَّ ينامون على أجنابهن وكما تنزلق صخرة من أعلى قمة جبل متدحرجة تأخذ في طريقها أي شيء, وهن أيضًا يتدحرجن بأجسادهن الممتلئة من أعلى إلى أسفل تظهر على أثرها سيقانهن وأفخاذهن العامرة باللحم والشحم وقد أخذنا وقتًا في نتفها من الشعر حتَّى بدت تثير كل من لمْ يعرفْ الإثارة ويصحب ذلك نوبة من الصريخ الهستري المتقطع, ومن الممكن أن تقوم المرأة بتكرار هذا أكثر من مرة وسط تصفيق، وتهليل الأطفال الذين يعتقدون أن أمهاتهم يلهون ويتسابقن مع بعضهن البعض.

داخل حجرة بنيت من الطين أعلى التبة وفي أقصى النجع وكأنَّه شاهد على هؤلاء المجاذيب اللاتي يتمرغن فى بحر من الأتربة ويطلقن الصيحات كإسطوانة بوتجاز تركلها امرأة سمينة لتتدحرج على الرصيف محدثة ضجيج وإزعاج لمن أتى بهم حظهم العاثر وأقاموا في طريقها, يقبع مقام الشيخ شعبان الذي ينال حظ وافرًا من الدعك والتمسح في جدرانه بل قد تأتي إحداهن تمسك في أيديها لفافة ومن ثمَّ تجلس هي وأبنائها ومن تصاحبها يفترشن الأرض ويفردن ما تحويه اللفافة من ملوحة، وبصل أخضر وجبنة قديمة ومش وعيش شمسي ويبدأن الأكل في نهم وشراهة -ولأن الملوحة الأكلة المفضلة لديهن- فقد تطول المئدبة ولا بد أن ينال الشيخ شعبان حظه من تلك الرائحة التي تنتشر في الحجرة الضيقة

الرطبة وأقوى برفان وضعه الإنسان، وعندما يفرغنا من اِلتهام كل ما وقعت عليه أيدهن, يبدأن في النم والصرصرة وأن (فلانة) حدث معها كذا وعلانة حدث معهما كذا، ونادرًا ما تسلم واحدة من بين شفايفهن كذلك فإن الأطفال الذين في الغالب يعتبرن مقام الشيخ شعبان متنزه يبدأون في الركض، والصياح واللهو حتَّى تتزحزح المؤخرات الطرية لإمهاتهن من أماكنها معلنة الرحيل.

لكن لماذا نساء النجع يفعلن ذلك، وما الضرورة التي تجعلهن يتحملن مشقة هذا الفعل الذي لربما يتسبب لهن في أصابات، نستطيع أن نجزم أن هؤلاء النسوة ضحية للجهل، والتهميش لمجتمع إنكب على ذاته بادية في تحجر في الأفكار والمعتقدات يضن على النساء بأبسط الأشياء وما قد يكون من حقوق، دائمًا وأبدًا ما يصف المرأة (بمكسورة الجناح) يضع حولها هالة من القيود، والمحاذير من العيب والحرام ويغلفها بالبردة عند الذهاب والمجيء ويحرمها من التعليم متعللًا بأن البنت في النهاية لبيت زوجها.

هل بعد ذلك من الممكن أن نلومهن على أفعالهن أم نوجه اللوم إلى رجالهن أبدًا فحتَّى الرجال ينغمسون في بحر من القيود والعادات والجهل.

من بين هؤلاء النسوة بدرية التي لمْ تلبثْ أن تغادر حتَّى سرعان ما تعاود الكرة من جديد، قد مضى على زواجها خمسة أعوام

كاملة- ولم تنجب فيها وبعد أن طرقت الكثير من أبواب الأطباء والمشحوذين والأضرحة، كان عليها أن تندر الغالي والنفيس إذا حملت.

مع نسمات صباح مشرقة وهواء عليل وسماء صافية تقف بدريَّة في صحبة فايزة أعلى التبة أخذت تنظر يمينًا ويسارًا وقد أمسكت بيد فايزة التي ربتت عليها وقالت:

- لا تخافي أنتِ لطالما فعلتي ذلك اِفعليها الآن.

أخذت نفس عميق ثمَّ أغمضت عيناها، اِنتابتها رجفة خوف لأول مرة لتكمل فايزة:

- سوف أنتظرك بالأسفل.

تشبثت بدريَّة بها، وقالت في صوت بدا مذعورًا

- أنا خائفة لا تتركيني.

وهي تنظر في عيناها.

- لطالما فعلتي ذلك ما بك؟ لن يحدث شيء من أجل أن (تتشاهري) ويحدث حمل.

تحررت بدريَّة من البردة، وتركت فايزة التي نزلت إلى الأسفل ولا زالت بدريَّة تقف كما كانت لتشير لها فايزة، وتقول في صوت عالي.

- هيا اِفعليها أنا أنتظرك.

من يريد العسل عليه أن يتحمل لدغات النحل إنَّها تريد أن

تصبح أم، أن ترفع رأسها، وتتحرر من لقب أرض بور إنَّها تفعل ما قد يودي بحياتها من أجل أن تسمع كلمه (أمي) قذفت بجسدها على التراب، وراحت تتدحرج في نوبة من الصريخ حتَّى توقفت أسفل قدمي فايزة التي أمسكت بها وحاولت أن تساعدها على النهوض قائلة:

- ربنا يعوض عليك!

****

- يا ابنتي الإنسان ميسر لا مخير يجب أن ترضى بقضاء الله.

- يا أمي ما نحن فيه لا يرضى الله.

سألت دموع زبيدة على وجنتيها, حاولت أمها أن تخفف من الحالة النفسية التي عليها اِبنتها لكن من يخفف عنها هي أيضًا من عب أثقل كاهلها، وقد شاخ قلبها من جدار الصمت, طويلًا وكثيرًا حاولت أن تبوح بما جادت به الأقدار، ونظرت نظرة طويلة شاردة يملأها حزن وانكسار إنَّه الشيء الذي يخفي رغبة جامحة في تفتيت ماضٍ أليم، وواقع تعس تألمت منهما النفس قبل الجسد, وعاد بها الزمن إلى الوراء حينما كانت فتاة جميلة تتباهى بجمالًا ضن على الكثير من قريناتها ويسكر القلوب طربًا وعشقًا.

في لحظة ما اختار قلبها، وما كان له أن يفعل, شابًا أغواها بالهوى الذي أطبق على قلبها واِجتاح حاجز التقاليد والعادات التي نشأت عليها, وبعد أن كانت ابنه الحسب والنسب يتمانها زينة

شباب القرية, صارت شريدة مع ذئب بشري اِنتهك كل ما لديها من أنوثة وجار على ما تبقى لديها من كرامة وبعد أن أذاقها المر فارقها، وترك لها ذكرى (زبيدة) لتكن شاهدًا على معاناتها, لململت في بقايا عمرها وسخرت حياتها لابنتها لكن كان عليها أن تواجه أيامًا صعبة ومجتمع قاس تفنن في إذلالها حينها فقط أدركت أن لاخيار أمامها إلَّا أن تعمل راقصة تجوب الموالد في القرى والنجوع وكما يرث الابن مهنة أباه ورثت زبيدة مهنة أمها وصار لها سيط واسع لكن اللعنة لا زالت تطارهما, وكما لمْ يخلُ مكتب المدير من السكرتيرة ولا تخلو حياة الراقصة من البلطجي الذي يتعايش على عرق وسطها وحجته في ذلك أنَّه يوفر لها الحماية, لكن حقيقة الأمر أنَّها فعلًا تحتاج لمن يحميها.

- اتركني في حالي لا أطيق أن أراك.

هكذه صرخت زبيدة في وجه حنفي البلطجي حيث ضاق بها الحال وقد صار عبء على أعصابها ومنغصًا لفرحتها بعد أن تعرفت على كمال الذي أصبح أمل في أن ينتشلها من وسط لطالما تمنت صادقة الابتعاد عنه وتركه بلا رجعة ليصرخ في وجهها وقد سبقت يده لسانه ليصفعها في قوة قائلًا في حدة:

- أنتِ لي وحدي.

ارتمت على السرير، وراحت تتألم من الصفعة وصرخت قائلة:

- حرام عليك ابعد عني!

اقترب منها ثمَّ أطبق يده على شعرها، وقال وهو يشدد على مخارج الحروف:

- أنا هنا من يأمر وينهي لن اتركك لأحد مهما حدث وإن ظننتي أنَّك قد تهربين مني سوف أعثرعليك حتَّى وإن عدتي مرة أخرى إلى بطن أمك وحينها سوف أقتلك أتفهمين سأقتلك!!

هبت واقفة وحاولت جاهدة أن تتخلص من قبضة يده وأخذت تصعفه على وجهه بكلتا يديها، وقالت في لهجة يشوبها التحدي.

- أنت الذي واهم البلد فيها حكومة.

أفلت شعرها ثمَّ أمسك يديها، وقال ساخرًا:

- سلميلي على الحكومة.

في لهجة أكثر تحدى:

- حاضر سوف أسلملك عليها وعلى فكرة أن لمْ تستطِعْ الحكومة أن تحميني منك يوجد من يستطيع أن يلبسك طرحة.

ما كادت أن تكمل حتَّى جن جنونه وصفعها في قوة وعنف لتصرخ حتَّى كادت أن ترتج الحوائط وسال الدم من فمها وسرعان ما أخرج المطوة من جيبه وقال وهو يهتز غضبًا:

- أنا أعلم من تقصدين يا فاجرة سوف أقطعه إن فكر أن يأخذك مني لن أتركه، وسوف ترين.

****

بعد أن ضاع شقاء سنوات من الادخار والتقشف والشح الشديد

حيث دائمًا ما كان يقتات ضاحي وزوجته على الخبر الحاف وكثيرًا يكون طعامهم قطعة جبن لكن كما يقال (مال الكنزي للنزهي) صار ضاحي حطامًا يبكي ناعيًا حظه لمْ يجدْ متنفس غير الضرب المبرح لزوجته بالخرزانة، وكأنَّه يخرج في جسدها الاضطهاد الذي يعاني منه، أمَّا النواحي المادية التي اِنهارت تمامًا أيضًا وقد احتار كثيرًا في حلها ولمْ يجدْ إلَّا أن يذهب إلى عدلي ليأخذ منه مال بالفائض.

كان عدلي يجلس كالعادة في المندرة يتصفح دفتر المديونيات ويطمئن قلبه على زيادة رصيده, كم من بيت خرب من وراءه إنَّه الهدف الذي رسخ له حياته ويجد فيه متعة ولذة لا يضاهيها شيء آخر هو أن يكوش على أكثر عدد ممكن من المنازل التي يضع يده عليها من بعض المتعثرين، حينما يعطي أموال لأحد يتمنى في داخله أن يتعثر ولا يستطيع السداد حتَّى يؤول إليه داره وكل ما يملك.

ارتدى نضارته قعر الكوباية واضعًا إيَّاها في منتصف أنفه ثمَّ راح يبل أصابعه ويعد النقود في تؤده، وعندما ينطق برقم ثمَّ الذي يليه يطرب قلبه وكأنَّه يسمع لحن تمنى أن لا ينتهي, ليقطع عليه متعته صوت ينادي:

- يا حاج عدلي.

- سريعًا قام بجمع النقود ورصها ثمَّ طوى صفحات الدفتر ودلف

إلى حجرته، ومن ثمَّ قام برفع غطاء الدكة، وفتح القفل الذي عليها لينزاح عن شيء شبيه بالخزنة وضع الدفتر والنقود وأطال النظر إليهم في شغف ليستفيق على الصوت الذي ينادي, وما لبث حتَّى أعاد إغلاقها وأعاد فرش الدكة كما كان ثمَّ خرج إلى مصدر الصوت ليجد ضاحي الذي قال:

- أين كنت يا حاج عدلي تعبت من كثره ما نديت عليك؟

أخذ عدلي يقهقه!

- يا مرحب يا ضاحي اِتفضل يا راجل.

جلس ضاحي على الدكة بعد أن صافح عدلي ثمَّ قال وهو ينظر في الأرض:

- أريد قرشين يا حاج.

بعد أن انتشى طربًا قال، وهو يبرم طرف شاربه.

- وما له نحن في الخدمة كم تريد؟

- تشكر يا حاج أريد ١٠٠٠٠ الآف جنيه.

في صوت جاهوري راح ينادي:

- البصامة ودفتر إيصالات الأمانة يا ولد.

****

حينما يمض بنا الزمن تظل أشياء راسخة في أذهاننا عندما نتذكرها تومض العقل بلحظات من السعادة هزَّ حمدان رأسه وابتسم عندما رأى أخيه إبراهيم يركض مناديًا على أبيه الحاج عبد الكريم.

- عم عماشة المزين يا أبويا.
لا يزال يتذكر حينما كان طفلًا صغيرًا جالسًا على الأرض، وعماشة المزين يمسك شفرة موس غير حادة كاسيًا رأسه بالصابون ثمَّ يجري الشفرة عليها وما هى إلَّا دقائق حتَّى تكون رأسه خالية من الشعر تمامًا ومع أنَّه دائمًا ما يحذر فيه من أن لا يجرحه لكن لا يمكن أن تمضي الحلاقة دون أن ينجو من الخدوش في رأسه هنا وهناك التي غالبًا ما يعالجها عماشة عن طريق أغراق قطعة قطن بسبرتو ثمَّ وضعها على الجرح لتشتعل رأسه في ألم قد يجعله يبكي.
ابتسم عماشة لتظهر على أثرها أسنانه الفضية اللامعة مداعبًا حمدان.
- فاكر أيام زمان يا حمدان عندما كنت أحلق لك. . . ضحك حمدان ثمَّ راح يتحسس رأسه، ولوهله شعر وكأنَّها تؤلمه كما في الماضي قائلًا:
- وهذه أيام تنسى يا عم عماشة!
الحلاق أو المزين كما يطلقون عليه كان كما الفلاح الذي يحصد آخر الموسم نتيجة عرقه وما زرعت يداه, كان معظم أيام السنة يحمل شنطة العدة ويبرم النجوع والقرى والمرور على جميع المنازل ويحلق لجميع أفراد الأسرة سواء كان طفل، أو شاب، أو رجل، ومن الممكن أن يتم ذلك في نفس اليوم حيث يأخذهم

مقطعية واحدة بالجملة كذلك عندما يحلق للأطفال الصغيرة فإنَّه من المؤكد أن يجري الموس على العديد من الرؤوس دون أن يستبدل كل ما يمكن أن يفعله كي يطهره أن يجعل أصحاب الدار يغلوا له مياه ثمَّ يضعه فيه بضع دقائق وبعد ذلك يرش عليه نقاط من السبرتو كانت هذه هي وسيلة التعقيم الوحيدة المتوفرة لديه.

كما يقولون من زرع حصد فإن عماشة يحصد نتيجة جهده المتواصل نهاية العام لكن هل يحصل على أية نقود؟

أبدًا إنَّما يؤجل ذلك إلى لموسم حصاد القمح والذرة حيث يلف على المنازل يوميًّا ويملئ أكياسه التي يجد فيها الحمار بأسًا شديدًا تجعله يعاني أشد المعاناة في حملها, ما يحصل عليه لا يكون مقدار محدد إنَّما متروك لما تجود به كل عائلة، وفي الغالب يكون أكثر مِمَّا يتوقع وبعض العائلات التي لا تزرع يكون العطية منها عبارة عن بيض وربما فراخ أو زغاليل كلًا حسب ما يتوفر لديه.

بعد أن طالت يد التطور النجع تمرد الشباب خاصة المتعلمين منهم على هذة العادة، وصاروا يذهبون إلى صالونات الحلاقة في المركز لكن لا يزال كبار السن يحرصون على أن تجري أمواس عماشة على رؤوسهم.

أخرج عدة الشغل المكونة من مرآة قديمة في حجم كف اليد ما تخفيه من الوجه أكثر مِمَّا تظهره وشفرة تلوثت بجميع فصائل

الدم من كثرة ما شرحت وجوه ورؤس الزبائن وزجاجة عطر خمس خمسات وصابونة كحجر الجلخ وفرشاة متهدلت الشعيرات ومشط يتخلله طبقة لا بأس بها من الطين وكيس قطن وزجاجة سبرتو حتَّى يكوي رأس من يقع تحت شفرته ثمَّ جلس الحاج عبد الكريم على كرس خشبي صغير وتحرر من العمامة التي لا تفارقه إلَّا في سريره, لتظهر رأسه التي لمْ يمكثْ عليها سوى القليل من الشعيرات اللاتي لا يزلن يمسكن بالحياة ورأسًا جار عليها الزمن, ليمرر الحاج عبد الكريم يده على رأسه، ويمسك ذقنه ويقول:

- خف يدك يا عماشة.

ضحك عماشة ثمَّ قال فرحًا بنفسه!

- أنا يداي مرهم يا حاج!

قهقه الحاج عبد الكريم!

- من يشهد للعروسة؟!

- ربنا يبارك فيك يا حاج!

- تسلم يا عماشة.

- ما بك يا حاج؟! يبدو الحزن على وجهك على غير المعتاد كنت أرى علامات الرضا.

- والله يا عماشة عندك حق.

- خير يا حاج؟!

- حمدان كان يريد الزواج من اِبنة عبد الفضيل وذهبت معه كي

أخطبها له لكنَّهم رفضوا وليس ذلك فقط بل وجدت منهم غلظة في التعامل وكأنَّنَا نريد أن نسرقهم!

هزَّ عماشة رأسه في عدم رضا قائلًا:

-هم لا يمكن أن يجدوا مثل حمدان لكن ماذا نعمل يا حاج في ناس ترى أنَّها من طينة أخرى غيرنا مع إنَّنَا من طينة أنضف.

****

أخذ حمدان يحدق في سقف الحجرة شارد الذهن حائر النظرات يتمتم بالكلمات التي تخرج حارة كلهيب قلبه المحترق، والدموع تملأ عيناه محدثًا نفسه -يا ضحى يا حبيبتي إن القلب ليحزن عليكِ، فرقتنا الأيام والتقاليد لكن مكانك في القلب محفور- إنَّه حقًا يحبها ويذوب عشقًا من نظرات عيناها لمسه من بين يديها تكفي لتجعله يشعر أنَّه أسعد إنسان في الدنيا، لمْ يكنْ أبدًا ضعيفًا لكنَّه وقع في الحب أسيرًا وهل يلام قلب بالهوى اكتوى تلك الليلة ليست كغيرها إنَّها ليلة العيد, بعد أن فضفض عمَّا بداخله وسربت مشاعره من طي كتمانه، وأدمعت عيناه من فرط انكساره وقهره راح يتذكر الماضي البعيد حينما كان طفل تغمره الفرحة ابتهاجًا بتلك الليلة, حيث يجهز جلبابه الصغير البلدي الذي يفصل له خصيصًا عند الترزي والحذاء الجلد الذي لا ينعم به سوى عدد غير كثير من أطفال النجع، وعندما يحل المساء ويحين موعد النوم الذي في الغالب يكون بعد العشاء مباشرةً

يأخذ الجلباب والحذاء في حضنه على السرير وينام ومع آذان الفجر تيقظه الحاجة وهيبة حتَّى يأخذ حمام العيد حينما كانت أمه الحاجة وهيبة تأتي بصفيحة المياه الساخنة وتأتي بطشت صاج كبير، وكرسي خشبي صغير ومن ثمَّ تلم أطراف ثيابها واضعة إيَّاها في وسطها ثمَّ تجلس على المقعد الخشبي، ويجلس حمدان في الطشت غصب، وتبدء أشق عملية قد تقوم بها طيلة الأسبوع من أن يخلع جلبابه، ولباسه والفانلة في صعوبة بالغة ومن ثمَّ تملئ بالكوز وتسكب عليه، ولا يخلو الأمر من المناهدة والمرازية التي صارت طقوس معتادة عند كل مرة يأخذ فيها حمام، وابتسم حينما تذكر صريخة عندما يدخل الصابون عيناه صائحًا بأعلى صوته متألمًا وأمه في حنان الأم تتحمل كل ما يقوم به بصدر رحب بل وأنَّه أحب ما يكون على قلبها.

يا لها من أيام لاحت أمامه كطيف جميل تمنى أن يتشبث به ولا يتركه كم كان يسعد بعد أن ينتهي ويلبس جلبابه الجديد ويمشي في خطوات حذره حتَّى يحافظ عليه، وحتَّى يذهب مع أبيه يصلي الفجر ثمَّ يذهبان إلى الخلوة لصلاة العيد حيث يجتمع معظم الرجال والأطفال وبعد أن يفرغوا من الصلاة يتبادل الرجال التهاني ويركض الأطفال إلى أمهاتهم ليذهبوا إلى المدافن حيث تجلس الأم في صحبة الأطفال بجانب مدفن عائلتها وقد أعدت سبت به (الرحمة) قُرص أعدتها بنفسها بالسمن البلدي وفاكهة ومن ثمَّ

تنتشر الأطفال بحثًا عن الرحمة حيث يفتحون جلبابهم ويقولون في كلمات شبه محفوظة -الرحمة يا خالة- ليجمعون كل ما تطاله أيديهم من قرص وفاكهة حتَّى تسطع الشمس في سماء النجع، وتلملم كل امرأة ما تبقى لديها وما جمعه أطفالها ثمَّ تعود إلى الدار حينها يكون انتهى العيد بالنسبة لأهالي النجع.

****

قد أمسك طرف جلبابه في فمه، وراح يكرت بين النخيل وكأنَّه يفر من كلب مسعور يكاد أن يفتك به وفي صياح هستيري أخذ يصرخ:

- السدة يا أمير.

وهو يكاد يقفز من الفرحة!

- صح يا محمود؟

- نعم.

راح محمود، وأمير يركضان وقد اتخذا طريقهما إلى الترعة حيث السدة بهجة النجع، ومصدر سعادة ليوم كامل لمعظم رجال النجع وأطفالهم.

كان انحصار المياه عن الترعة وتطهيرها ما يعرف بالسدة حيث ينزل الرجال داخلها ويقومون بعمل أحواض لا يزيد اتساعها عن عشرون مترًا ثمَّ يحصدون ما بداخلها من سمك وينقضون عليه أثناء ذلك تكون الأطفال على الشط، وكل منهم يمسك بمشنة

يضع فيه ما يقذفه أباه أو أخيه من سمك وعندما ينتقل إلى حوض آخر ينتقل الطفل معه وهكذا.
كان عسران خبير محنك والسدة مصدر أساسي للسمك والبروتين كل عام لديه.
إنَّه صياد ماهر وخطاف يجيد انتهاز ما يسنح من فرص عاشق لكل ما هو مجاني, يتخذ من محمود مساعد له الذي يقف على الشط حافي القدمين متأهب متحفز لأي سمكة تحط على الشاطئ وبدأت (المعمة) وراح الجميع يتسابقون للظفر بأكبر عدد ممكن من السمك كانت أول مرة يتعايش إبراهيم مع تلك التجربة حتَّى إنَّه عندما قبضت أصابعه الصغيرة الرقيقة على أول سمكة التي سرعان ما انتفضت في حركة سريعة ومفاجئة حتَّى تركها وقد ظهرت عليه علامات الذعر لينال من سخرية الأطفال وضحكاتهم الكثير وقبل أن ينتبه كان محمود قد أخفاها وهو ما جعل حمدان يصيح عليه بأعلى صوت.
- لا تخاف يا إبراهيم أمسك السمكة وضعها في المشنة.
كان السباق قد صار على أشده الكل صار يلهث بحثًا في المياه الراكدة وبين ورد النيل المنتشر بكثافة حتَّى دقت طبول المعركة وبوادر صراع شرس عندما عثر عسران على قرموط ضخم بين الهيش، وأخذ يصيح بأعلى صوته (قرموط)، وقد أحدث ضجة عالية وصار كأنَّه ينازل شخص في معركة حيث واجه مقاومة

شرسة من القرموط الذي كاد أن ينتصر عندما اِنزلق من بين يديه لكن سرعان ما استعاد عسران قواه، وانقض عليه بعد أن تعثر داخل عجلة كاوتش وما أن أمسك به حتَّى رفعه لأعلى مهللًا معلنًا انتصاره على القرموط الذي سيكون في لحظات في بطون أفراد عائلة عسران، وراح محمود يقفز فرحًا لأعلى كالكرة الجلد.

****

- نفسك معانا يا عمران.

أنت عارف يا عبد الصبور إن شاء الله النجع في جيبنا.

إتكأ عبد الصبور على الدكة ماسكًا بلي الشيشة ثمَّ أخذ عدة أنفاس متقطعة أعقبها نفس طويل رافعًا رأسه لأعلى ثمَّ أخرج الدخان من فتحتي أنفه كزوج شكمان تالف.

كانت ولا تزال انتخابات مجلس الشعب في صعيد مصر أبدًا لا تخضع لمعايير الكفاءة إنما دائمًا ما تكون نتيجة حتمية للتعصب، والقبلية وفي الغالب تكون طمعًا في مصالح شخصية واكتساب شهرة، أو تيسير أعمال قد تكون غير مشروعة، والشيء الدارج والمتعارف عليه بينهم أن النائب ما هو إلا منفذ لا محدود لقضاء مطالبهم الخاصة من تعيين أقاربهم في وظائف حكومية وغيرها.

- لكن عائلات الفلاحين ماذا فعلت معهم؟

أخذ عمران نفس شيشة ثمَّ وضعه أصبعه على المبس وقال:

- جميعهم معنا عدا عائلة السوالم.

- تمام.
- لا تقلق يا عبد الصبور الصناديق كلها في أيدينا الحكومة معنا أنت ناجح ناجح من غير أي شيء.
بعد أن برم طرف شاربه، ومسح على جبهته.
- في البر العربي يفعلون ما نفعله والمرة الماضية كان كرسي البرلمان سوف يضيع يا عمران.
- لا تخاف هذه المرة كله متنطبط.
- على خيره الله.
نهض عمران ثمَّ أخذ يصفق بيده قائلًا في صوت جاهورى:
- جهز الغدا يا ولد.

****

واثقة الخطى تمشي ملكًا أخذت فايزة تتدلع وتهز في مؤخرتها الطرية البضة، وكلما ترنحت أفخاذها صعودًا ونزولًا ترنحت معها قلوب رجال تفرغوا لاختلاس النظرات لكل من تصادف وتمر عليهم, مطلقين عبارات تدغدغ مشاعرها وتطرب لها, استمر الرجال الجالسين في المقهى القريب من حمام النساء في المركز في التحديق في فايزة، وجسدها الممتلئ الملتف في البردة التي انحسرت عن ثوبها الأحمر التي تظهر من أسفله عن ساقان بيضاوان ناصعتا كالشهد، وتكشف عن صدرها المكتنز الراسخ كثمرتان من الرمان في انتظار من يلتهم حباتهما, وبدا الوجه

أبيض متورد وشفتان شهيتان وعينان واسعتان غامزتين ومؤخرة طرية بضة رجراجة مفعمة تنتظر من ينهل منها, عندما رأت أعين الرجال التي تكاد أن تقفز من مقلتيها وقد سال لعابهم على تلك الفرسة الجامحة مطلقين عبارات الغزل.

كانت حريصة على أن تذهب إلى حمام إنصاف بين الحين والآخر، حمام قديم لكنَّه ملتقى للعديد من النساء يوميًّا للاستمتاع بالماء الساخن والبخار لتنعيم وتدليك بشرتهن, كان أمير في صحبة فايزة كالمعتاد عندما تخرج المرأة لا بد وأن يكون معها زوجها وإن لمْ يكنْ فأحد إخواتها حتَّى وأن كان طفلًا صغير, رفع أمير رأسه لتقع عيناه على لافتة متهالكة كتب عليها (حمام إنصاف)، وأسفل اللافتة استقرت إنصاف صاحبة الحمام على دكة خشبية ممسكة في يدها منشة تلوح بها بين الحين، والآخر لتبعد الذباب وللوهلة الأولى بدت مربعة الجسم أمَّا وجهها ففيه أثر من جمال بائد جار عليه الزمن لكنَّها أبدًا لمْ تعترفْ بذلك, وكما يقوم السمكري بعمل عمرة كاملة لسيارة متهالكة من الخارج وتجديدها وإعادت رونقها مرة أُخرى, فقد حاولت إنصاف جاهدة في أن تعيد لنفسها ما طالته يد الزمن ما كانت تتباهى به يومًا حيث طقم الأسنان ناصعة البياض، والحواجب المرسومة في عناية فائقة، والكحل الذي يزين حدقة العين، وأحمر الشفاة الذي تكتظ به شفتاها وبروكة الشعر ذات الخصلات الصفراء.

إنصاف بائعة هوى محنكة، وجالبة متعة لمن يبحثون عنها ويستطعون دفع ثمنها, ومِمَّا لا شك فيه أنَّها تمتلك الكثير من الأشياء التي جعلت لها هيبة بين قاطني الحي حيث الحمام الذي يدر عليها مبلغ لا بأس به من المال كذلك الأساور الذهبية التي أثقلت ذراعيها, كذلك المنزل الخمس طوابق، والفتونة التي منحت إيَّاها بفضل علاقاتها المتعددة من بلطحيه وتجار ورجال أعمال وضباط شرطة, من الوهلة الأولى سرقت فايزة اِنتباه إنصاف ورأتها سائرة على درب الهوى, وكما ينتظر الصياد فريسته حتَّى تقذف بنفسها في شباكه بكامل إرادتها كانت إنصاف على يقين بأن تردد فايزة الكثير على الحمام سوف يجذب لها الزبون (الصياد) لكن ما كان يقلقها ويجعلها تترقب خشية من عواقب قد تدفع ثمنها غاليًا كون أن فايزة من عائلة العمارنة وبنت شيخ النجع كان هذا كفيل بأن يجعلها تفكر ألف مرة في أي خطوة تتخذها, حتَّى قرر ممدوح كبير بلطجيتها وحامي عرينها في أن يوقع بفايزة، ويمتص رحيقها ويقطفها من فرع عزتها وبعد إلحاح طويل وكثير رضخت إنصاف لرغبته وخططت جيدًا للايقاع بفايزة التي راحت تبتسم عند مرورها من أمامهم لتوقفها قائلة.

- ممكن تجلسي معي قليلًا.

نظرت لها فايزة في دهشة ثمَّ ابتسمت قائلة:

- خير يا مدام؟

- خير أنت تعلمي إن أنا أحببتك جدًا من أول يوم دخلتي فيه الحمام، وعرفت عنك كل شيء.
وهي تبتسم!
- أنا أيضاً أحببتك كثيرًا يا مدام وارتحت لكِ.
في ابتسامة خبيثة، وقد قصرت كثيرًا من حوار ظنته قد يكون طويلًا.
- أنت مبسوطة في حياتك؟
وهي تهز رأسها في أسى.
- يعني
- أنا حاسة إنك غير مبسوطة شوفي يا فايزة أنا كل ما أمتلكه هذا بفضل إني استغليت الفرصة التي سنحت أمامى أنا كنت مثلك تمامًا وعلى استعداد لفعل أي شيء لإسعادك.
في دهشة قائلة في تعثر:
- لكن أنا. . . يا مدام ست متزوجة.

****

لمْ تكنْ لتتمنى شيء غيره, أبصرت عيناها على بشاشة وجهه، وجمال طلته تذوب شوقًا في نظرة رضا باديًا إياها تتمنى أن تكون شهيقًا يدخل إلى أعماقه ولا يخرج أبدًا تحتفظ بكل شيء تجد فيه ريحه لتنعيم به عندما تشم رائحته فيه كل مساء قبل أن تغدو إلى فراشها، حقًا وأبدًا إنَّه يستحق كل هذا الحب.

اِبن العم غالبًا ما يكون الحلم الذي تفتح الفتاة عيناها عليه، وعندما يكون حمدان فلا يمكن أن تلام نسمة على عشقها قد نما هذا الحب في داخلها منذ طفولتها يومًا بعد يوم ولمْ تبخلْ عليه بل سقته من فيضن مشاعرها ودموع عيناها التي سالت على خديها حرقة من عدم إحساسه بها لطالما سمعت ودغدغت أحاسيها من أنَّها ستكون لحمدان زوجة إنَّه أولى بها من الغريب وكثيرًا ما انهالت عليها كلمات الثناء التي تطرب القلب، والعقل من الحجة وهيبة.

- تسلمى يا نسمة.

- ألف هنا يا اِبن عمي

تناول حمدان كوب الشاي من نسمة التي بدت كمن يريد أن يزيح همًا جاسمًا على صدره بين التردد والرغبة في الخلاص من طيات كتمان أثقل على كاهلها جلست إلى جانبه في خجل.

كان حمدان يجلس في المندرة في انتظار عمه حتَّى يبدي له عن اسم المرشح الذي اتفقت عليه العائلة في الانتخابات.

وهي تنظر في الأرض، وفي مزيد من الخجل حيث بدت كمذنبة تبوح بذنبها.

- أنت تعلم يا حمدان.

هزَّ رأسه مبتسمًا، وراح ينظر إليها في مزيد من الحنان.

- أعلم ماذا يا نسمة؟

في تهتهة، وقد أحمرت وجبنتيها خجلًا:
- إنك بالنسبة لي. . .
ابتسم حمدان، ونظر في الأرض، وقد استنتج ما تريد قوله ليقول في لهجة حانية.
- أنتِ بنت عمي يا نسمة أختي ولكي معزَّة كبيرة عندي لكن أمر قلبي ليس بيدي، وإن شاء الله ربنا يرزقك أن الحلال اللي يستهالك ويستاهل حبك.
نظرت في الأرض، وشعرت أن الدنيا تدور بها وسالت دموعها على خديها، وغادرت وقد طويت صفحة حبها وماتت زرعة روتها بدموع عيناها.

****

يلف ويدور من قرية إلى قرية ومن نجع إلى نجع يتمطى حماره الذي صار شريكًا له في رحلة البحث الدائمة عن الرزق, له صوت مميز يعرفه الصغير والكبير نادرًا ما يخلف ميعاد يمر من أمام المنازل حتَّى أنَّك قد تضبط ساعتك على ميعاد مروره من أمام منزلك مرة كل أسبوع إنَّه عبد النعيم البياض الذي يجمع البياض البلدي من النجع كذلك فإنَّه مصدر سعادة للأطفال الذين يرون فيه مصدر هام للحلاوة الشعر والطحينية وكما كان في ما مضى تتم عملية مقايضة للسلع بين الناس قبل أن تستخدم النقود فإن عبد النعيم ينتهج نفس الطريقة حيث يأخذ البيض من المنازل

ليس مقابل نقود لذلك فإنَّه يضع على الحمار مشنة تنقسم إلى فتحتين على اليمين واليسار إحداهما تكون ممتلئة بالحلوى، والأخرى يضع فيها ما يتحصل عليه من بيض، وحينما تعج بالبيض يمتطي حماره إلى المركز حيث التجار الذين يكونوا في انتظار ما يأتي من بيض بلدي بأبخس الأثمان والذي يحبونه كثيراً في الصعيد حتَّى أن الكثير منهم لا يأكل الأنواع الأخرى، ويتهكمون على من يأكلها ويأنفونها, ونستطيع أن نقول أن عبد النعيم صندوق أسود بالنسبة لأهالي النجع الذين لا يعرفون عنه سوى أنَّه بياض ومعظمهم يتعامل معه في تعالي بل إنَّهم يحتقرون مهنته والشيء المؤكد أنَّه يعلم ذلك ويدركه جيدًا وفي قرارة نفسه هو الذي يحتقرهم ويسخر منهم محدثا نفسه -أنا الذي أحتقركم وأحتقر ما تفعلون الكثير منكم- ولا يمتلك شيء وفي الغالب يعمل أُجَرِي باليومية بل طيلة نهار كامل من أجل نقود بالكاد تسد رمقه إنَّما أنا أتاجر أستغل بعض من جهلكم وكبركم وسوء تصرفكم وأنتم تعانون في تربية الطيور وما يتبعها من أطعام وتنظيف وعناية، وجهد ومشقة تعانيه زوجاتكم بداية من آذان الفجر إلى غروب الشمس في ذلك، يكفي أنَّكم تسمحون بأن تكون تلك الطيور شريكة منازلكم في حين أحصل أنا على خلاصة مجهوداتكم، وأخذ منكم البيض برخص التراب وأبيعه بسعر مرتفع ومن الممكن أن أربح في يوم واحد ما تشقون أنتم من أجله في أسبوع كامل,

أنا أمتلك منزل خمسة أدوار، ومحل كبير، وأرض زراعية ماذا أنتم تملكون؟! غير الفقر والجهل والعنجهية ومؤخرات تمتلئ بالقاذورات-.

****

أتخذ حنفي من البلطجة مسارًا، ومن نهب شقى زبيدة عمل دائم له إنَّه عاطل بالوراثة يعتز بنفسه يمشي مختالًا يهز في أكتافه يفر من سطوته جميع من يحيط به وش سجون لا تفارقه المطواة حتَّى عندما يدخل الحمام يتشاجر مع ذباب وجهه يا ويل من يتجرأ محاولًا نيل زبيدة من بين يديه لا يسلم منه، إلا واحد فقط صار لا يعرف ماذا يفعل معه؟! كان ولا يزال سبب للمشادات التي تحدث بينه وبين زبيدة بصفة شبه يومية يريد أن يفتك به لكنَّه يقف عاجز حائر خائف من العواقب التي من الممكن أن تحدث له إذا أغضب كمال عمران الذي هو أيضًا يكن له كل مشاعر سلبية، ولا يتقبل فكرة وجوده لكن ما يمنعه عنه زبيدة نفسها التي حقًا أحبته وترى فيه رجل بمعنى الكلمة حضن دافئ ترتمي فيه يحتويها وتستظل بظله وتخشى عليه أن تتلوث يده بهذا الحنفي.

قبل أن تدفس النقود في صدرها لتخفيها حتَّى دخل عليها حنفي في سرعة البرق خطف النقود من بين يديها تشبث بجلبابه، وصرخت:

- حرام عليك تأخذ شقايا!
فى حدة، وقد أمسك بيديها في قوة!
- أنا الذي أشغلك وهذا المال من حقي.
- ربنا ينتقم منك. . .
قبل أن تكمل أخذ يوجه لها الصفعات وهي تصرخ تستغيث, أثناء ذلك كان كمال في صحبة بكري خارج باب غرفتها وقد سمعا صرخاتها ليفتحا الباب في قوة حتَّى أصاب الذعر حنفي وقبل أن يتكلم، أو يأخذ ردة فعل، أو يخرج المطواة من بين طيات ملابسه اِنقض عليه بكري ممسكًا بيده واضعًا إيَّاه خلف ضهره، وقد أخرج كمال الطبنجة، ووضعها على رأسه، وقال في لهجة صارمة:
- شوف أول وآخر مره أراك هنا.
وهو يحاول التملص دون جدوى.
- من أنت حتَّى تأمرني أنا ممكن. . .
قبل أن يكمل كان بكري قد أمسك برقبته في قوة وشد كمال أجزاء الطبخة، وقال في حدة:
- أنت الذي لا تعرف مع من تتحدث يا كلب أنت ديتك رصاصة لا أكثر!
حنفى في خوف، وانكسار:
- زبيدة زوجتي.
سريعًا زبيدة وهي تصرخ وتصفعه على وجه.

- أنا لست زوجتك يا كلب.
كمال في غضب وقد أمسك برقبته حتَّى كاد يخنقه!
- ورأس أبوي لو رأيتك هنا مرة ثانية لأقتلك، ودا آخر كلام عندي,
بكري:
- نحن لو علمنا أنَّك تعرضت لها لن نقتلك فحسب إنَّما سنقطعك حتت ونرميك للكلاب عندنا في النجع.
كمال، وهو يمسك به ويدفعه نحو الباب.
- غور من وجهي وقد أعذر من أنذر!
هزَّ حنفي رأسه مطيعًا ودلدل ودانه، وخرج يجز على أسنانه كابتًا غضبه لأول مرة، وقد خسر أول جولة في حياته وشعر بمهانة ليس لها مثيل, وبعد أن أدخل كمال الطبنجة إلى السديري ثمَّ أمسك بيد زبيدة التي جلست على الكرسي في حالة اِنهيار وراح يسمع دموعها، وقد أمسكت بكف يده، وأخذت تقبل فيها وقالت:
- ربنا يخليك يا زينة الرجالة لكن أنا أخشى عليك من شره.
وهو يضحك!
- لا تخافي هذا كلب، ولا يسوى!

****

رغم ما لديه من منازل وأموال تتكاثر يوميًّا إلَّا أنَّه يتملكه دائمًا شعور بالفقر والعوز حب المال، وتكنيزه ووضع يده على أكثر عدد من المنازل، وخراب البيوت هدفه الوحيد أن يكوش على كل ما

تطاله يده الكلمة التي يرددها دائمًا أنَّه مثل البحر يحب الزيادة وكثيرًا ما احتار في أمره كل من في النجع والتسأول الذي يتردد في المجالس لمن يجمع كل هذة الثروة؟! وقد دار حديث طويل عن الرجل العاجز (المخصِ) كما يقولون، ويسخرون ويستهزؤن منه شمتانين فيه بأنَّه ليس له في النساء, إذن لماذا هذا الطمع والجشع؟! قد يكون ذلك لعدة أسباب خافيَّة, إذا تمعنا كثيرًا نجد أن لكل إنسان نقطة ضعف شيء تطرب له نفسه لذلك فإنَّه نقطة ضعف عدلي وشهوته المتأججة تكمن في المال الذي له رائحة تذكم أنفه، ويا لها من متعة ولذة يجدها عندما يمسك رذمة نقود ثمَّ يرفعه إلى أنفه ويشم رائحتها المميزة إنَّه الإدمان الذي يعشقه منذ الصغر، ووقع أسيرًا له، والشيء المدهش والذي يدعو إلى التعجب أنَّه شحيح جدًا وبخيل لدرجة لا يضاهيه أحد فيها حتَّى أنَّه يتألم كثيرًا عند إنفاق أية نقود حتَّى، وإن كانت في الأشياء الضرورية عدا الأكل الذي ينفق فيه دون حساب.

- يا خراب بيتك يا عدلي!

قال هذه الجملة وراح ينظر في حسرة إلى الجاموسة التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة لكن سرعان ما أحضر سكينًا حاميا وأمسك بالجاموسة شبه الميتة وذبحها ومن ثمَّ سلخها وقطعها قطع، كانت البلد جميعها قد سمعت نحيبه وصارت داره عزاء وراح جميع أقاربه يواسونه، وانتابت زوجته بسيمة والنساء حالة من

الصويت وكأنَّها حالة وفاة لشخص عزيز.
بعد أن ذبحت الجاموسة، وسلخت وقطعت إلى قطع صغيرة كان على عدلي أن يبيعها لبعض أهالي النجع لكنَّه لمْ يرضخْ لخسارة كبيرة مؤكدة حيث أن في النجع عندما يحدث مثل هذا الشيء يقولون بأنَّه (لحقها بالسكينة) أي أنَّها كانت ميتة تقريبًا لذلك لا يدفعون أكثر من ربع قيمة الكيلو الفعلية، وذلك على الأكثر لذلك قام عدلي بالاتصال بصاحب مطعم شهير في المركز الذي أتى إليه في جنح الظلام وقد اشتراها لحوم صافية، وبنصف الثمن وعندما طلب عدلي زيادة قال:
-أنت لحقت الجاموسة بالسكينة، والمفروض تكون الآن ملقاة في الترعة وحتَّى أن أردت بيعها لا يزيد الثمن عن الربع.
وهو يهز رأسه في حسرة قائلًا:
- يعنى يا معلم زباين المطعم يعرفوا إن أنا لحقتها بالسكينة، وأنت سوف تبيعها كباب الكيلو بالشيء الفلاني وكله بيدوب في المعدة، ولا من نشاف ولا من دري

****

في خطوات بطيئة متعثرة راحت تسير يتملكها الخوف والقلق, حائرة النظرات مشاعرها متضاربة ما بين الخوف من أن يفشى أمرها، أو أن يراها أحد ويتعرف عليها وما بين أن تعيش الحب الحقيقي وتذوب في أحضان رجل يشبع غرائزها ويروي ظمأ

جسدها وينهل من أنوثتها المتفجرة.
منذ نعومة أظافرها كانت ترى نفسها بعيدة عن تلك العادات التي تجعل من المرأة سجينة جدران دار ضيقة، وإن اتسعت فإنَّها تضيق بالقيود والموانع لا ترى فيها إلَّا أبيها وأخواتها وما تصبح عليه تنام فيه حتَّى وأن خرجت لا ترى العالم إلَّا من خلال نافذة صغيرة في بردة أشبه ما يكون بساتر يمنع عليها حتَّى الهواء كم تمنت أن تحيا مثل سائر النساء التي تراهم من خلال شاشات التليفزيون مرتديًا أحدث الملابس على الموضة ومنطلقة هنا وهناك دون قيود
نعم إنَّها تبحث عن الحب ومن يطرب قلبها ويدغدغ مشاعرها، ويهمس في أذانها ويسمعها كلمات حب ويثنى على جمالها وأنوثتها، وينهل من جسدها البض ويشعل مخدعها, ولمْ يكنْ أبدًا على ذلك الرجل الذي تبحث عنه أو أن يملأ عيناها وكانت مهيئة تمامًا بأن تمنح جسدها لمن يقدم لها شيء حتَّى لو كان قليلًا من ذلك وكالفريسة التي تقع بكامل إرادتها في شباك الصياد وقعت فايزة في شباك ممدوح والتقت عيناهما.
كان ممدوح خبير محنك في الإيقاع بالنساء بل نستطيع أن نقول أنَّه بالفعل ولي أمر العديد منهن أو بمعنى أدق أنَّه المسئول الأول عنهن الذي يسرحهن ويشغلهن في تجارته التي دائمًا ما يصفها بأنَّها -أعمال حرة تحت السرة- عندما تقع عيناه على من لديها

استعداد فطري لتلك الأعمال، ومؤهلة بأن تصبح فتاة ليل يحوم حولها، ويدغدغ مشاعرها بكلمات الحب ويطرب قلبها بحنية مصطنعة وكذلك فإن لديه عامل مساعد وشريك أساسي فعال مسيطر يدعي إنصاف.

في مكان بدا خاليًا مهجورًا يقف ممدوح في انتظار فرسيته الجديد وصيده الثمين الذي لطالما أراد أن يحظى به ولِمَا لا، وهي بنت الأصول ذات الحسب والنسب، وهو يعرف ذلك ويدرك جيدًا من تكون ومن يكون أبيها وما قد تمثله إذا دخلت شباك فجوره فقد ذاق الكثير من النساء لكن كانوا جميعًا بنات فقراء مقهورات بعن أجسادهن مقابل ثمن بخس وحتَّى يستمرن في الحياة كذلك فإن فايزة ستكون بمثابة الفرخة التي تبيض له ذهب عندما يؤجرها لمن يريد أن يجامع ابنة الأكابر.

أخذ يشعل سيجارة وراء الأخرى في توتر شديد وقلق من أن تضع مجهوداته هباء ولا تأتي في الميعاد المنتظر حتَّى وقعت عيناه عليها كانت ترتدي البردة لكنَّه تعرف عليها من خلال ساقيها الجميلة الممتلئة التي تظهرهما دائمًا عن عمد والخلخال الذي يصدر رنين مميز عندما تضع رجليها على الأرض كفرسة جامحة في انتظار من يكبح جماحها، ويمتطيها.

وضعت يديها بين يديها وراحت تنظر إلى عينيه الناعسة ثمَّ تنظر في الأرض في خجل مصطنع ليقول ممدوح في نعومة:

- أشعر وكأنِّي أحلم.
في ابتسامة!
- أنت تبالغ.
- ألا تصدقيني يا قمر؟!
- اسمك ممدوح.
- أول مرة أعرف أن اسمي جميل يمكن لأنَّه خرج من بين الشفايف التي مثل الفراولة!
ضحكت وقد أطربتها كلماته ليقول في تعجل، ولهفة:
- صدقيني لا أقدر على هذا الجمال!
في ضحكة رقيقة قالت في دلال:
- يظهر إنَّك حكاية.
فى رقة، وتسبيل عيون:
- أنتِ اللي حكاية يا حبيبتي.
ذابت تمامًا فقد كانت أول مرة تسمع فيها كلمة حبيبتي حتَّى بعد أن تزوجت لمْ تسمعها مطلقًا من زوجها الذي كان لا يعرف من الزواج سوى القبلات والأحضان.
- ممكن أعزمك على الغدا؟
- أنا لست جائعة.
- نأكل لقمة على السريع.
- ياريت يكون في مكان لا يوجد به ناس كثيرة حتَّى لا يراني أحد.

وهو يبتسم!

- أكيد.

صمت قليلًا، وأخذ الاثنان يسيران ليقول:

- ما رأيك نذهب إلى شقتي؟

في صوت ضعيف وكأنَّها تفاجأت مستنكرة!

- شقتك؟!!

- نعم أحسن مكان حتَّى لا يرانا أحد، ونكون على راحتنا.

نظرت إليه ثمَّ ابتسمت، وقالت:

- موافقة فعلًا أحسن.

شعر بسعادة وزهو وقال وهو يختلج فرحًا:

- الشقة سوف تنور.

****

٦

- ربنا يكفينا شر المستخبي يا بني.
هذا آخر ما قاله الحاج عبد الكريم لحمدان الذي لمْ يعِ وقتها ما يختبئ وراء كلام أبيه.
ناقة كانت السبب في الحرب التي اندلعت بين قبيلة تغلب وقبيلة بني شيبان استمرت قرابه أربعون عام وراح ضحيتها الكثير من أفراد القبيلتان.
دائمًا وأبدًا ما تكون نتائج الاندفاع وعدم السيطرة على النفس وخمية, أحيانًا كثيرة تشحذ الهم، وتقرع طبول العداء نتيجة أسباب تبدو تافة لحد كبير وقد تتوهج نار الثأر لتحرق الأخضر قبل اليابس، وتجر ويلات الندم, من أجل هذا (يطاطي) رجال رؤوسهم لم يكونوا أبدًا جبناء إنَّما حقنًا لدماء أجيال حتَّى لمْ تولدْ بعد, قد يمتد الثأر للأطفال الذين لمْ يكنْ لهم وجود, يدفعون ثمن خطأ اقترفه أجدادهم, تمر الأيَّام ما بين خوف وقلق فر وكر إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا.
لمْ يكدْ محمود يتجاوز الدرب المؤدي إلى الشارع الذي يقطن فيه

أمير حتَّى سمع صوتًا ينادي عليه التفت إلى مصدر الصوت الذي يقول:

- إلى أين أنت ذاهب يا محمود؟

في فرح!

- إلى أمير أين كنت يا إبراهيم؟

- كنت ذاهبًا إليك.

-هيا بنا نذهب إلى أمير.

سار الاثنان في الطريق، وقد وضع كلًا منهما يده على كتف الآخر لينظر محمود إلى إبراهيم، ويقول:

- ما الذي في يدك يا إبراهيم؟

هزَّ إبراهيم رأسه ثمَّ قال فرحًا وتفاخرًا:

-هذا برقوق أحضره لنا أبي من البندر.

في دهشة، وقد اتسعت حدقة عينيه وجرى ريقه لكنَّه استطاع أن يحبس مشاعره ولم يبدِ أي مظاهر لهفة وقال:

- برقوق؟!

- أو لمْ تعرفه؟!

قال محمود، وهو يلوي شفتيه في اشتمزاز وقرف مصطنع.

- نعم أعرفه أبي أحضره لنا كثيرًا لكن نفسي أعرف ما هو؟

- يا بني هذا فاكهة.

راح إبراهيم يقضم البرقوقة في نهم ويحرك في لسانه ماسحًا شفتيه

باديًا استمتاعه بطعم البرقوقة، ومحمود ينظر إليه في نهم ليقول:
- تأخذ واحدة يا محمود.
اختلج قلب محمود فرحًا لكنَّه هزَّ رأسه في عدم اكتراث قائلًا:
- موافق.
أعطى إبراهيم برقوقة إلى محمود الذي ما أن تناولها حتَّى راح ينهش فيها بأسنانه كشفرات موس حادة ليلتهمها في بضع ثواني، وقال:
- طعمها جميل يا واد يا إبراهيم.
وما أن اقتربا من دار أمير عمران حتَّى راحا يصفقان في نفس واحد، ويناديان عليه.
- أمير يا ويكا.
ليأتي إليهما صوت أمير الذي ينظر من النافذة، ويقول في فرح:
- نعم أنا قادم.
نزل أمير إليهما في سرعة البرق، ومن ثمَّ راحوا يركضون وراء بعضهم في سباق غير معلن مسبقًا حتَّى اجتازوا الحاجر، ووصلوا إلى نخلة عبد العال
دلف الثلاثة إلى داخل الساحة التي تقبع بها النخلة, قد كانت الساحة فيها أثر من ازدهار بائد حيث كانت يومًا جزء من حديقة كبيرة تعج بالعديد من أشجار الفاكهة التي لمْ يتبقَ من معظمها شيء يذكر, ولمْ يصمدْ منهم سوى نخلة وحيدة تقف بجذعها

الطويل وسباطاتها كثيرة البلح وزعفها مترامى الأطراف شامخة أمام كل تحدى ترمي بظلالها على الحاجز كعلامة مميزة.
ما أن وصل الصبية حتَّى بدأوا يقفذون ويصيحون ويتشقلبون ومن ثمَّ يضحكون عندما تسقط جلاليبهم على رؤوسهم وقد بدوا عرايا باللباس فقط.
كان من بين العادات التي يتبعها الصبية عند اللهو أن يحاولوا جاهدين إسقاط البلح من عليها عن طريق قذفها المتواصل بالحجارة حتَّى تسلم لهم وتتخلى عن بعضًا من بلحها الذي يتساقط عليهم وعلى الأرض, وبعد ذلك يبدأون مرحلة أخرى من اللهو وإثبات الشجاعة من التسلق والخفة والتسابق على من يتسلق أسرع, سريعًا وفي رشاقة متناهية تسلق محمود النخلة، وأخذ يقذف بكل ما تصل إليه يداه من بلح على الأرض في انتظار النزول؛ كي ينعم به ويجمعه, وما أن لبث أن نزل حتَّى تسلق أميرعمران وأخذ يقذف بالبلح هنا وهناك ومحمود وإبراهيم يتسابقان في التقاطه ويضعونه في حجر جلبابهما كان هذا يتكرر شبة يوميًّا إنَّها أداه هامة من أدوات اللعب لديهم، وجانب هام من التسلية.
لكن هل هؤلاء الأطفال محرمون من البلح حتَّى يعانون كثيرًا في التسلق أو حتَّى التسابق في التقاطه من على الأرض أبدًا فما أكثر البلح في منازلهم حتَّى إنَّه قد تمر عليه أشهر دون أن

ينفذ ونستطيع أن نجزم أنَّهم قد يحرمون من أشياء كثيرة إلَّا ما يتسابقون لأجله.

وهكذا يقضون اليوم ما بين الركض واللهو حتَّى اصطدمت خطواتهم القصيرة بما يخبئ لهم التعصب والجهل قفز إبراهيم سريعًا ليلتقط البلح الذي يقذف به أمير, لكن ما لبث أن وجد محمود يصارعه ليظفر به حتَّى اصطدم طمع محمود بعناد إبراهيم, وهمَّ إبراهيم يلتقط بلحة ليضع محمود رجله عليها ليقول إبراهيم:

- ارفع رجلك من على البلح.

- لا أنا الذي سوف أخذها.

- أقول لك أرفعها أحسن لك.

- لن أرفعها وأرني ماذا ستفعل؟

لمْ يكدْ يكمل محمود الجمله حتَّى انطلق إبراهيم نحو كومة البلح التي جمعها محمود ليأخذه ويضعه في حجر جلبابه، ولكن قبل أن ينطلق مسرعًا ركض محمود نحوه، وركله في قدمه وأفلحت الركلة حيث اِنكب إبراهيم على وجهه وتبعثر البلح منتشر في المكان ليقفز محمود فرحًا، ويضحك أمير الذي نزل من على النخلة، وانطلق إبراهيم يصرخ من وجع العرقلة لكن ما لبث أن وقف ثمَّ هجم على محمود الذى بدا متحفزًا ثمَّ وجه له لكمة قوية في وجهه فأصابت فمه وسال الدم منه وأحس محمود

بألم شديد وراح يصرخ ويصيح لكنَّه أمسك بحجر كبير وقذفه على إبراهيم الذي تفاداه أثناء ذلك ركض أمير الذي أفزعه منظر الدم إلى منزل عبد الفضيل، وقد صارت المعركة حامية الوطيس ليمسك محمود بلجباب إبراهيم ويمزقه ثمَّ يدفع به على الأرض، ويرتمن عليه ويتدحرج الاثنان فوق بعضهم كالكرة مرة يكون محمود فوق إبراهيم، ويكيل له اللكمات ومرة يصبح إبراهيم هو الذي فوق أثناء ذلك كان الحج عبد الكريم يمتطي حماره، وقد مر عليهما ليشاهد محمود جاثم على صدر إبراهيم، ويوجه له اللكمات في وجهه ليقول في صوت حاد لعله يفلح في أن يفض الاشتباك.

- ابعد يا واد منك له.

لكن الإصرار بدا على محمود الذي يريد الانتقام للدماء التي تسيل من فمه على أشده ولمْ يلبثْ أن نزل الحاج عبد الكريم من على حماره وأمسك بمحمود ورفعه من على إبراهيم، وقال بعد أن صفعه على وجهه.

-غور يا واد يا ابن الكلب.

صرخ محمود، وكال الشتائم للحاج عبد الكريم أثناء ذلك كان أمير أمام منزل عبد الفضيل، وأخذ يطرق الباب في قوة وذعر لتفتح له سعديَّة، وتقول:

- ما بك يا أمير؟

في سرعة وكأنَّه يركض مذعورًا:
- إبراهيم يا خاله سعدية عور محمود، والدم نازل من فمه وأنا قادم رأيت الحاج عبد الكريم نزل من على حماره، وضرب محمود.
في انفعال، وهي تضرب على صدرها في غل:
- يا مراري الرجل الناقص يضرب الواد.
كان شوقي نائم لينتفض على صرخة أمه ويقول:
- ماذا حدث يا أمي؟
- أمير ابن عمران يقول أن إبراهيم عور محمود والرجل الكبير عبد الكريم ضربه أيضًا.
في حدة، وانفعال!
- ماذا تقولى يا أمي الرجل الواطي هو وابنه يضربوا ابن أخويا؟
دخل شوقي الحجرة، وخرج مسرعًا وفي يده الطبنجة لتصرخ أمه!
كان الحاج عبد الكريم يمسك بإبراهيم، ويقول له:
- أنا قلت لك قبل ذلك أنَّك لا تلعب مع ابن الكلب هذا.
في خوف وقد مزق جلبابه، ووجهه يعج بالخدوش!
- يا أبويا هو من أخطأ.
أثناء حديثهم كان شوقي يهرول مسرعًا في انفعال وغضب شديد ليصيح في حدة موجهًا كلامه للحاج عبد الكريم:
- من اِبن الكلب يا عرص يا واطي؟

ما أن اقترب شوقي حتَّى صفعه الحاج عبد الكريم على وجهه، وقال:

- اخرس يا قليل الأدب.

وهو جسده ينبض بذرات النار، وفي غضب قال شوقي بعد أن أخرج الطبنجة من جيبه.

- أنت تمد يدك على أسياد يا كلب.

بمجرد أن قالها أطلق النار على الحاج عبد الكريم الذي ارتمى على الأرض غارقًا في صمته.

****

ألا أيُّها الحزن تأبى أن تتركني ولا تبالي شكوتك لمن بيده حالي له الأمر كله، وعليه اتكالي سوف تأتي يومًا ليا الدنيا بما ضاقت به السبل هذا ظني بخالقي وسؤالي.

عندما أحبها لمْ يكنْ يدري أنَّها الشقاء الذي ينتظره تمنى حمدان كثيراً، وحلم أن تكون ضحى بين أذرعه يحتويها ويدفئها بلهيب شوقه ونيران حبه المشتعل لكنَّها كانت النار التي أحرقت قلبه وعقله واكتوى مستقبله بصدمة الحرمان.

تحت الشجرة ينعي حظه ويتمعن في ملامح ضحى التي غرقت في بحر من الحزن والهم كانت كالوردة التي تفوح رائحتها لتعبئ كل من يقترب منها لكن لم يكن ذلك إلَّا بداية لما جنته تمردها على واقع تحياه والتثبت بطرف السراب حينما أدركت ذلك كان

كل شيء خرج من بين يديها وصار أسير لقلبها وسبحان مقلب القلوب.
ابتسم، وتدفق الدم الحار في عروقه وكادت أطرافه ترتعش من فرط اللحظة والكلمة التي لطالما تمنى أن يظل يسمعها، ولا تخفت أبدًا ليتردد صداها في قلبه وأذنه إلى الأبد.
- حقًا يا ضحى أنا حبيبك.
راحت تنظر إليه في شوق ولهفة تتمنى أن تذوب بين يديه كقطعة ثلج في الماء لكن شيء ما يمنعها إنَّه الحياء والعفة قالت والدموع تتساقط على وجنتيها.
- نعم يا حبيبي وسوف تظل حبيبي إلى الأبد.
هزَّ رأسه في شجن وقال:
- وأنت كذلك أول وآخر حب ولا يمكن أن أحب غيرك سأعيش على أمل أن تكوني لي ما حييت.
مد يده وأخذ يمسح في دموعها اِحمرت وجنتيها بحمرة الخجل، وقالت هامسة:
- أنت حبيبي يا حمدان أنا لمْ أتمنَ أحد غيرك مهما فرقتنا الحياة لن أنساك يومًا حتَّى وإن صرت لغيرك فلن ينال مني أكثر من جسد بلا روح.
سقطت دمعة حاول جاهدًا أن يمنعها وأمسك بكف يدها ووضعه بين يديه حاولت أن تمنعه لكن قلبها كان حاجزًا مانعًا وانجذبت

يديها إلى يديه كقطعة حديد التصقت بمغناطيس ثمَّ طبع قبلة رقيقة ارتجف لها قلبه وارتعشت ضحى واهتز قلبها شوقًا وخوفًا ثمَّ نظرت في الأرض حياءً.

- أنتِ لا يمكن أن تكوني لأحد غيري سوف أفعل المستحيل، وإن شاء الله يكون فيه حل.

- تفتكر يا حمدان!

- لا بد وأن نتمسك بالأمل حتَّى وإن كان خيط رفيع

نظرت في الأرض وهزت رأسها، وقالت على مضض في حزن!

- يداهمني شعور بالخوف من الغد.

راح ينظر إليها ثمَّ وضع وجهها بين يديه، وقال في صوت عميق دافئ.

- لا تخافي إنِّي أحبك. . . أحبك!

****

راح يخترق صفوف المصلين الذين تراصوا جالسين في صفوف غير متناسقه تاركين فراغات غير قليلة في ما بينهم, في خطوات قصيرة راح يتخطى الأجساد التي بدت كالحواجز, حيث بدا الشيخ عبد التواب أمام المسجد الكبير في جسده الممتلئ القصير ذو وجهه ملظلظ متورد وشارب صغير مهذب في عناية عندما تنظر إليه في زيه الأزهري الجبة والقفطان لأول وهلة قد تعتقد أنَّه أصغر عمرًا مِمَّا هو عليه الشيخ عبد التواب خريج جامعة الأزهر وريث أبيه

وأجداده في أمامه المسجد منذ الصبى اِعتاد على الخطابة يحظى بحب واحترام الصغير قبل الكبير قبلة هامة لمن يريد الفتوى في أمرًا ما ومع كل هذا فإنَّه أبعد ما يكون عن الخوض في المشكلات الحقيقة للنجع ما تحويه القلوب، وتتسمك به العقول، يسير على خط رسم له ولا يمكن أبدًا أن يحيد عنه ورث عن أبيه جبته وقفطانه، لباقته وحسن حديثه، أخلاقه الحميدة التي يثنو عليها الجميع، وكذلك سيره جانب الحائط، وكما كان أبيه عين وأذن للحكومة، تراقب وتسمع ما يهمس به هنا وهناك، وعلى الفور تكتب التقارير عن كل هامس وصامت في النجع، صار أيضًا عبد التواب تمامًا كأبيه، بل أنَّه زاد عليه اللسان الذي لا يعظ إلَّا بكل ما يملي عليه أسبوعيًّا في خطبة الجمعة.

****

علي الدميري كالكثير من الرجال المحبين المخلصين لزوجاتهم, لكنَّه أبدًا لا يعرف كيفية الوصول إلى نقاط السعادة عند زوجته, لا يعرف يقول كلام يطرب له قلبها (مزوق) كما يقول أو حتَّى يشبعها جنسيًّا، وبعد الزواج أضحى كمن رقص على السلم لمْ يهنئ معها يومًا أو أن يحظى بمكانة بين أهالي النجع بل إنَّهم صاروا يسخرون منه وعن الرجل (الدلدول) وتواترت أحاديث كثيرة عن الفرسة التي لمْ تجدْ الخيال الذي يستطيع أن يرودها يومًا بعد يوم تسوء العلاقة ومنذ أن تعرفت على ممدوح صارت ناقمة

ساخطة عليه لا ترى فيه فحولة ممدوح أو حتَّى رومانسيته، وراحت تفكر كثيرًا في أن تلبي نداء الشيطان.
ظنت أنَّها عثرت على ما أفقدها الزمن إيَّاه على الحب على من راح يرسم لها مستقبل بدا جميلًا ويبني لها على الرمال قصرًا تكن هي صاحبته وأخذ يوسوس لها ويدك ما تبقى لديها من سبل الرفض وحصن عفتها.
نعم لمْ يترك لها ممدوح أية فرصة وزين لها حياة كانت تتمناها وأنَّها عندما تأتي معه سوف تكون برنسيسة وترى عالم آخر متعة لمْ تكنْ لتحلم بها ومن يوم لآخر تنمو في داخلها فكرة الهروب معه وقد نحت العقل جانبًا، ولمْ تعر كلام أمها أي اهتمام حتَّى عندما كانت تنصحها قائلة:
-لا تتبتري على النعمة أحسن تزول منك-.
إن كان عليٌّ به بعض العيوب فإنَّه كذلك لديه ما يجعلها تحمد الله على ما هي فيه إنَّه يحبها لكن لا يعرف كيف يعبر عن مشاعره كذلك لا يبخل عليها بأي شيء بل إنَّه يضع بين يديها كل ما يتحصل عليه من أموال عن طيب خاطر يكاد يكون خادمًا مطيعًا يرتعش حين تحتد عليه تسود الدنيا أمامه حينما (تنقمص) من أتفه الأسباب راحت تجمع كل ما خف وزنه وغلى ثمنه من مصاغها الذهبي والنقود التي كانت تأخذها من عليٍّ دون أن يشعر، والقليل من الملابس وقد وضعهتم في قطعة قماش

ثمَّ ربطتها ووضعتها داخل كيس بلاستك، وعزمت أمرها على أن تهرب كانت قد أعدت الخطة سوف تقول أنَّها ذاهبة إلى المركز كالمعتاد ثمَّ تلتقي بممدوح الذي وعدها بأن يأخذها بعيدًا جدًا في مكان لا يمكن أن يعثروا عليها فيه مهما طال بهم البحث.

كان ممدوح بالفعل قد استأجر شقة مفروشة في محافظة أخرى, وبدت المسافة من حيث التقيا إلى الشقه أبعد مِمَّا كانت تظن وراحت تحدث نفسها -ماذا يخبئ لي القدر؟ هل أنا على حق؟ وما الذي سوف يفعله أبي عندما يعلم هروبي؟- أخذت الأفكار تتصارع داخلها وقد ظن ممدوح أنَّها مغيبة من صمت أطبق على شفتيها.

كل تلك المشاعر تبددت سريعًا عندما دخلت فايزة الشقة في صحبته حيث راقت لها جدًا فقد بدت جميلة تحوى أثاث راقي وفخم وقد دفع ممدوح مبلغ كبير نظير إيجارها حتَّى يبهرها، وقد حدث بالفعل.

كانت تقطن في دار كبيرة جدًا لكنَّه مبني بالطين معظمه مكشوف به طيور وزريبة تصحو من الفجر تنظف، وتأكل الطير وتترب تحت البهائم وتملأ الأزيار وتحمي الفرن للخبيز إنَّها الآن تخلصت نهائيًّا من الأشغال الشاقة التي كادت أن تصبح مؤبدة في عصمة رجل تحتقره وتنفر منه, وقد ذهبت لمن ظنت أنَّه يستحق أن يظفر بجسدها وإلى الحياة الهادئة والنوم حتَّى الظهر.

نظرت إلى ممدوح الذي أزاح البردة من عليها ثمَّ نزع العباءة التي ترتديها واحتضنها في قوة وأطبق على شفيتها حتَّى شعرت كأنَّها قالب زبدة يسيح على نار هادئة!

****

اخترقت الرصاصة صدر الحاج عبد الكريم لتطفئ صوت العقل ونبرة التسامح, وأطلق الشيطان ضحكة عالية هزت أركان النجع، وزلزلت جدران الأمان وتحصينات الطمأنينة، صدى الصريخ واللطم على الخدود صار يدوي كقرع الطبول، وراحت الغربان تنعق وكأنَّها تشاركهم الألم والصدمة.

هرول حمدان كالمجنون حافي القدمين ليحتضن أبيه الغريق في دمائه وانهرمت دموع حارة كحرقة قلبه على أبيه الرجل الطيب الخير الذي لطالما كان يفعل الخير في الخفاء والعلن كان بمثابة المصباح الذي ينير حياتهم, الناصح له في أشد لحظات الضيق والحزن, يجد حضن يحتويه ويخفف عنه من يستند إليه ظهره, إنَّه وتد العائلة.

كانت صالة الاستقبال في مستشفى الرحمة الخاصة كخلية نحل ما بين الهرول هنا وهناك وقد بدا التوتر على العاملين, وقد طغى البكاء والنويح على جميع النساء خاصة الحاجة وهيبة التي جلست على الأرض وأثر التراب لا يزال على ملابسها ووجهها وشعرها حيث راحت تهيل على نفسها التراب عندما سمعت

الخبر.
سرحت لوهلة راحت تتذكر ذلك الجسد الطيب مسجى على الأرض غارق في دمائه وتوقف اللسان عن الكلام من هول الصدمة وارتمت تحتضنه في قوة وتهز في جسده لكنَّه كان في دنيا أخرى ليصرخ قلبها قبل لسانها (يا حبيبى. . . يا رجلي) وأخذت تغمس يديها في دمائه وتغسل بها وجهها وتهيل التراب على رأسها لحظات وكل شيء بدء يختفي وغيبت عن الوعي لتستفيق في المستشفى لتبكي كما لمْ تبكِ من قبل.
أكثر من خمس ساعات أخذها الأطباء في إخراج الرصاصة من صدر الحاج عبد الكريم وعمل الإجراءات الطبية له محاولين إنقاذ حياته وقال الأطباء إذا مرت عليه ٢٤ ساعة من الممكن أن ينجو ومرت الساعة تلو الأخرى ما بين الدعاء والبكاء والخوف من المجهول وحاول حمدان جاهدًا أن يخفف من حالة أمه وأن يربت على كتفها مطمأننًا إيَّاها حتَّى اقترب منه أحد الأطباء قائلًا وقد اكتسى وجهه حزنًا أن الحاج عبد الكريم قد فاق من البنج ويريد أن يتحدث معه ضروري شعر حمدان برهبة خاصة عندما رأى ملامح الخوف والحزن البادية على الدكتور وفي خطوات سريعة اتجه معه إلى غرفة العناية المركزة التي يرقد فيها أبيه وشعر كأنَّه يسير في ممر طويل لا ينتهي، ومرت عليه الثواني كأنَّها ساعات طويلة حتَّى دخل الغرفة واقترب من الحاج عبد الكريم

الذي بدا أنَّه يحتضر اقترب حمدان منه والدموع تملأ عيناه ليقول له الدكتور:
- تكلم معه قليلًا وحاول أن تتماسك.
لم يسمعه حمدان فقد كان مغيب تمامًا حيث أمسك يد أبيه وأخذ يقبل فيها ويبكي ليكرر الدكتور كلامه.
- بهدوء سوف أتركك معه قليلًا.
خرج الدكتور الذي تأثر مِمَّا يحدث ولا يزال حمدان يمسك كف أبيه الذي فتح عينيه في صعوبة وقال في صوت ضعيف.
- لا تبكي يا والدي العمر واحد والرب واحد.
هزَّ حمدان رأسه وراحت الدموع تسيل على خديه ليكمل أبيه:
- أنت راجل يا حمدان ابني الذي أفتخر به، واعتمد عليه المكتوب مكتوب يا والدي.
هزَّ حمدان رأسه، وقال في غضب وأسى!
- ولاد الكلب الظلمه لازم يدفعوا الثمن أنا. . . قبل أن يكمل قال أبيه:
- لا يا والدي أنا راجل كبير الحمد لله على كل شيء أخذت حظي من الدنيا وشبعت منها المستقبل أمامك أنت وأخوك. . . قاطعة حمدان:
- لكن يا أبويا.
في صعوبة. . .

- لا يوجد لكن يا حمدان الثأر خراب يا ولدي، وهم ناس مفترية وظلمه أوعى يا بني تفكر في الثأر سامح يا ولدي أنا سمحت المكتوب مكتوب.

وهو يهز رأسه والدموع تنهر كحبات مطر!

- لكن المعايرة يا أبويا يرضيك أن نعيش مكسورين كالحريم!

وهو يكاد يلهث في صوت ضعيف!

- يا ولدي الزمن قادر أن ينسى الناس لكن الدم راح يجيب دم، وخراب على العائلة أنت متعلم يا حمدان اترك الأمر للقانون يا والدي والله غالب.

في حرقة!

- القانون لا يمكن يجيب حقك أنت عارف يا أبويا

- لكن ربنا عادل يا ولدي اترك الأمر لله أوعدني يا ولدي كي أموت وأنا مستريح أوعدني يا والدي.

أخذ حمدان يبكي ويقبل في يد أبيه الذي راح يكرر الكلام في صوت لاهت ضعيف متقطع.

- أوعدني يا حمدان أوعدني يا والدي كي أموت وأنا مستريح.

هز حمدان رأسه، وقال:

- أوعدك يا أبويا.

ابتسم الحاج عبد الكريم، ونظر إلى حمدان نظرة طويلة ثمَّ قبلة على وجهه وقال:

- خد بالك من أمك وأخوك يا والدي. . . وأغمضت عينا الحاج عبد الكريم ورحل تارك حمدان الذي راح يحرك في يديه والدموع تنهمر من عيناه ويصرخ!

- أبويا. . . .

****

٧

شيء ما في صدره جعله يشعر بأن فايزة سوف تفر من بين يديه لا يعلم السبب ربما إحساس الزوج المحب بجنون الذي يدرك أن زوجته لا تبادله نفس الشعور بل نستطيع أن نقول إنَّه كان على يقين من ذلك, يتملكه شعور بالنقص وأنَّه غير كفئ لها.
كانت تتتكثر نفسها عليه لطالما أنكر عليها تمردها على الحياة معه والمقارنات التي لا تنتهي بأن من هن أقل منها جمالًا ومالًا وحسب ونسب ويحظين بحياة رغدة ولا شيء يضاهي كلمات التقريع والتوبيخ على أتفه الأشياء، ومع ذلك فقد كان عليٌّ مثل قطعة الحديد التي تلتصق بالمغناطيس سواء شاءت أم أبت كل ما كانت تفعله فايزة من سوء معاملة وهجران فراش لمْ يروعه أو يزحزح الحب في قلبه وكأنَّه يقع تحت تأثير تنويم مغناطيس مسلوب الإرادة يتلذذ بالعذاب مرت الساعات، وغابت الشمس وراح عليٌّ ينتظر فايزة التي ذهبت في الصباح الباكر كالعادة إلى المركز لكنَّها لمْ تعدْ كما كانت تفعل على أقصى تقدير قرب الظهيرة وطالت الغيبة وانتابه شعور بالقلق وراح يحدث نفسه

-ربما حدث لها مكروه أو ربما خطفت-، وانتقل القلق إلى والديه وقال أبيه:
- قد يكون خطفها أحد كما نسمع على الحريم التي يتم خطفها.
وأكملت أمه التي تجلس على الأرض واضعه يدها على رأسها!
- جوازة الشوم والندامة قالنا لك يا ابني ابعد عنها.
في انفعال، وغضب وقد هم واقفًا.
- كفى يا أمي أنا لست ناقص ما تقولين سوف أذهب إلى المركز كي أبحث عنها.
دخل عليٌّ حجرته حتَّى يرتدي جلبابه، ويأخذ نقود كي يذهب إلى المركز يبحث عنها، أو يبلغ عن اختفاء زوجته في الأقسام ارتدى جلبابه وعمته وأمسك بالخرزانة ثمَّ فتح ضرفة الدولاب وضع يده تحت الملابس في المكان الذي يضع فيه النقود لكنَّه لمْ يجدها انتابه القلق قذف بجميع الملابس على الأرض وقد بعثرها، وأخذ يبحث لكنَّه لمْ يجدْ شيء أخرج العلبة التي تضع فيها فايزة مصاغها وفتحها لكنَّه وجدها خاوية ليقول بأعلى صوته في هستريا
- هربت بنت الكلب سرقت الفلوس والدهب وهربت الفاجرة!
في جزع أسرع والديه إلى الغرفة فوجدا عليٌّ قد جلس على الأرض بين أكوام الملابس واضعًا يديه على رأسه قائلًا (هربت... هربت... هربت) ليقول أبيه في جزع وقد اقترب منه.
- ماذا حدث يا بني؟!

لمْ يجيبْ وكأنَّه لمْ يسمعْ إنما أخذ يردد:
- هربت. . . هربت.
ليصرخ أبيه في حدة:
- أقولك ماذا حدث؟
لمْ يجيبْ لتقول أمه التي راحت تمسك في الملابس الملقاة على الأرض.
- انطق يا بني ماذا حدث؟!
نظر إليها عليٌّ وعيناه تفيض بالدموع وقال:
- بنت الكلب هربت وأخذت الفلوس والدهب.
أمه في جزع وقد جلست على الأرض واضعه يدها على رأسها:
- يا مراري
أبيه في غضب!
- ماذا تقول يا بني بنت الأصول تهرب غير معقول،
وهو يهز رأسه في أسى!
- هربت يا أبويا.
أمه:
- يا مرارك الطافح يا دميري!
أبيه:
- اِتأكد يا بني.
علي:

- يا أبويا أقلك أخذت كل الفلوس والدهب وهربت صمت لحظات ثمَّ أكمل وقد لمعت عيناه في غل وقال:
- لكن سوف أعثر عليها وأقتلها.

****

لا يزال الغضب يسيطر عليه تنامي إلى مسامعه صوت يشبه صوتها وتسرعات دقات قلبه كان حبها كافيًا أن يجعله يتوهم بأنَّها هربت لا يمكن أن تكون فعلت صدى صوتها يتردد في كافة أرجاء الحجرة رائحتها تزكم أنفه راح يدور حول نفسه كالمجنون يهذي بكلمات غير ذات معنى ارتمى على السرير ودفس وجهه في الوسادة لحظات مرت عليه كالدهر ينعي حظه ويواسي قلبه حتَّى بللت دموعه الوسادة.
بعد زوال تأثير الصدمة كان عليه أن يقف صلدا متحدي جبل صعب المراس اِتخذ طريقه إلى أبيها الشيخ عمران ليخبره بما حدث يرتجف قلبه قبل عقله حقًا الحدث جلل شيء لا يصدق لمْ يحدثْ من قبل في النجع أن هربت زوجة من زوجها.
في خطى متعثرة وكأنَّه في غيبوبة يسير علي في دروب النجع الضيقة وقلبه وعقله يختلجان خوفًا والحزن والألم يكادان يفتكان به إنَّه في حيرة من أمره ما بين حزنه على فراق زوجته التي يعشقها بجنون وألم الفضيحة والخوف من مواجهه الناس والشيخ عمران ماذا يقول له؟ وكيف سيواجهه؟ مرت عليه الدقائق، وعقله يكاد

ينفجر من التفكير والحيرة حتَّى أنَّه لمْ يردْ تحية بعض المارة الذين يجلسون أمام منازلهم على المصاطب وقد راح بعضهم يسخر منه قائلًا: -البنت أكلت عقله عليه العوض- وتنطلق ضحكات عالية عامدين على أن يسمعهم لكن عليٌّ كان في دنيا أخرى وتمنى أن يطول الطريق لكنَّه استفاق على صوت الشيخ عمران الذي قال في صوت جاهوري حتَّى ارتعشت أطرافه!

- يا مرحب اتفضل.

جلس عليٌّ على الدكة ونظر إلى الشيخ عمران الذي لا يزال متكأ ممسك بللي الشيشه وراح عليٌّ ينظر في الأرض ليقول الشيخ عمران:

- خبر إيه؟!

لمْ يتكلم عليٌّ إنما نظر إليه نظرة طويلة شاردة ليكمل الشيخ عمران في انفعال بعد أن أخذ نفس من الشيشة وننفخ الدخان لأعلى.

- اتكلم يا بهيم.

وهو ينظر في الأرض وقد اختلج خوفًا.

- بنتك هربت يا سيد الناس.

هب الشيخ عمران ليعتدل في جلسته ومن ثمَّ قذف بللي على الأرض قائلًا في حدة:

- ماذا تقول يا كلب؟

ارتعش عليٌّ حتَّى ظن أنَّه بال على نفسه ليقول في تهتهة:
- الذي. . . سمعته يا شيخ بنتك هربت. . . وسرقت الدهب والفلوس.
همَّ الشيخ عمران واقفًا ثمَّ اقترب من عليٍّ ثمَّ صفعه على وجهه في قوة قائلًا في حدة وغضب شديد:
- تتعدى على أسيادك يا جبان!

****

دائمًا وأبدًا ما يتبرء عدلي من هذة العائلة خاصة الفرع الذي ينتمي له عبد الفضيل وولديه إنَّهم مصدر العكننة والهم وسيل من المشاكل, ينعتهم بالشفاطين لأنهم كثيرًا ما يلتهمون ما تطوله أيديهم من مال يرونه في يديه, وكما يقال: -مال الكنزي للنزهي- فإنَّها تنطبق عليهم تمامًا حيث أن عسران وأخيه شوقي يأخذون من عدلي الكثير سواء كان برضاه، أو مجبر كي يحل مشكلة ما يوقعونه فيها لأنَّه عمهم ولا بد وأن يدفع ضريبة صلته بهم, عندما يحتار عسران ولا يجد منفذ للحصول على المال من السرقة، أو النصب والخطف يذهب إلى عدلي ويقلبه ويلهف ما تطوله يده لكن ومع ذلك فإنَّه عدلي يعد أهم عنصر محرض لكل المصائب التي تحدث يتميز بروح حقد وغل يعيش ويتعايش على الصراعات التي أن لم يجدها يتطوع هو باختلاقها.
يطلق عدلي ضحكة عالية تظهر على أثرها أسنانه الذهبية التي

دائمًا ما يتباهى بها أعقبها بنفس بشيشة ثمَّ ينظر إلى عسران وعبد الفضيل ويقول:

- إنك جدع يا شوقي.

يهز عبد الفضيل رأسه تعبيرًا عن عدم الرضا!

- أنت فرحان بالخراب يا عدلي.

يأخذ عدلي عدة أنفاس سريعة متقطعة ثمَّ يخرج الدخان من فتحتي أنفه ويداعب طرف شاربه بأصبعه ويقول:

- يا عبد الفضيل أحسن حتَّى نكسر شوكة الفلاحين أولاد الكلب!

أمسك عسران بللي ثمَّ وضع أصبعه على المبسم أعقبه نفس طويل ونفخ الدخان في غل وغضب ثمَّ قال:

- لكن المهم يا عم عدلي نريد محامي كبير.

أخذ عدلي رشفة شاي مصدرًا صوت حيث بدا متمزجًا

- طبعًا أنا سوف أكلم سيادة النائب عبد الصبور من أجل أن يتوسط لنا عند فوزي ويقبل القضية.

عبد الفضيل:

- يأخذ كام؟

عسران:

- مبلغ كبير قوي يا أبويا.

عدلى:

- يأخذ ما يريده المهم شوقي يأخذ حكم مخفف، أو يطلع براءة

فوزي الهواري ممكن يبوظ القضية ويخرجه.
يمسك عسران ببرتقالة ويقشرها ثمَّ يفصصها ويأكل ثمَّ يقول:
- أنت تساهم بكم يا عم عدلي.
عدلى:
- ابدء جمع من كل فرد في العائلة والذي ينقص أنا كفيل به يا عسران.
عبد الفضيل:
- زي بعضه توكلنا على الله.

****

- بحبك ولا يمكن أحب غيرك حبك كالهواء الذي استنشقه كالماء الذي يحيني كالدم الذي يجري في شرايينى... يارب بحق قدرتك وعظمة رحمتك لا تفرق بيني وبين حبيبي.
أطالت ضحى النظر إلى حمدان، وعيناها تفيض بالدموع تريد أن تصرخ بها ويسمعها العالم إنَّها تحب حمدان لكن ما بيدها أن تفعل، وقد تدفع حياتها ثمن تهور قلبها.
كان يجلسان تحت الشجرة التي لا زالت شاهدًا على طهاره حبهما يعتصرهما الحزن والألم, الصمت والدموع والنظرات الحائرة المضطربة القلقة بادية على وجهيهما، قلبيهما ينزفان دمًا كانا على أمل أن يكونا لبعضهما تحويهما جدران غرفة يرتويان من الحب ينهلان من الأيام, لكن وبعد أن قتل أبيه بيد أخيها أضحى

حبهما كأنما يمسكان بجمرة نار بين يديهما, فيما مضى كانت الطيور تغرد من حولهما وكأنَّها تعزف لحن حبهما حب ارتوى من دموع عيناهما ونقاء سريرتهما أمَّا الآن فقد بدت الطبيعة تشاركهما حزنهما, حيث تنعق الغربان والرياح تكاد تصرخ من شدتها في نظرات حزينة وقد أمسكت يديه قالت:

- أنا بحبك يا حمدان ولا يمكن أحب غيرك مهما حدث دعنا نخرج من تلك القرية الظالم أهلها نفر بحبنا ونحيا حياتنا كما نريدها نحن بعيدًا عن القتل والظلم رفع حمدان رأسه ثمَّ نظر إليها ليقول والدموع تملأ عيناه وقلبه يقطر دمًا.

- تريدين أن أهرب من أجل أن يقولوا إنِّي جبنت أم إنكِ تخافين أن أقتص من أخيك.

نظرت إليه في عتاب، وقالت والدموع تسيل على خديها.

- هل هذا ظنك بي يا حمدان يعلم الله إنِّي أحبك ولا يهمني أحد غيرك لو كان الأمر كما تقول ما قلت لك نهرب سويًّا وأنت تعلم أن هذا سوف يجلب العار لأهلي يا حبيبي دعنا نهرب من هذا الجحيم الذي ينتظرنا.

وهو يهز رأسه في أسى!

- لو قلتي هذا الأمر فيما سبق كنت ممكن أفكر جديًّا في ذلك لكن فات الأوان لقد كتب الشقاء على حبنا ويعلم الله إنِّي أحبك لكن ماذا يفيد الآن إذا أردنا أن نهرب فيجب أن نهرب من ذلك

الحب أنا لا يمكن أهرب وأترك أمي وأخي وهم في أشد الحاجة إليَّ.

نظر إليها ولمْ يستطِعْ حبس دموعه أكثر من ذلك لتسقط كماء ساخن على خديه ليبعد رأسه متحاشيًا النظر إليها، ويمسح دموعه بيديه، أمَّا ضحى فكانت تنظر في الأرض وتضع وجهها بين يديها وتقول في أسى والدموع تنهر على خديها.

- حمدان أنا غريقه في نهر حبك!

نهض حمدان وأمكست ضحى بيديه لكنه تركها وابتعد ثمَّ نظر إلى خلف وقال:

-أرى في عينيكِ أمل لن يخفت طالما لمْ يتوقفْ قلبي عن العمل.

****

بينما كان عليٌّ يجلس يبكي كالأطفال على فراقها ينظر إلى صورتها في شوق وحنين أيام خلت لم يسعد معها كثيرًا ولم يشعر بحبها مطلقًا لكن كان يكفيه أن ينظر إليها كل صباح وهي نائمة إلى جانبه يتمعن في ملامح وجهها وكأنَّه يذاكر تفاصيله جيدًا، حتَّى يحفر في ذاكرته ليوم قد يأتي يحتاج إلى تلك الذكريات وها هي قد أتت، راح يقبل في الصورة ويقول في حرقة.

- لماذا تركتيني يا نور عيني؟

لمْ يكترث طويلًا للمضايقات أو كلام الناس التي تنهش فيه وفي عرضه وشرفه ومن أبيها الشيخ عمران الذي حمله المسئولية عن

اختفاء ابنته واتهمه صراحة بأنَّه قتلها حتَّى لا يقول أحد أنَّها هربت.
كانت فايزة ترتوي من الحب بين أحضان ممدوح تفجرت أنوثتها تتأود من اللذة، ومرت أسابيع وهما لا يرتويان أبدًا من الجنس كان ممدوح في قرارة نفسه يعتبرها كالبقرة يجب عليه أن يراعيها ويطعمها ويعلفها وأخيرًا يحلبها وينعم بخيرها تمامًا كان هذا ما يصبو إليه ويفعله مع فايزة الجائعة للحب والعطشانة للمشاعر أمسك جيدًا بمفاتيحها يداعب نهديها الوثابين المكتنزين حتَّى يتفجر فيهما الدماء الحارة الساخنة من لهيب الرغبة الجامحة يا لها من متعة يحصل عليها دون مقابل وهي بين أحضانه وقد صارت كقطعة عجينه طريَّة ساخنة بين يديه قبلته في صدره وراحت تتحسس وجهه بيديها قائلة:
- صحيح بتحبني يا ممدوح.
في ابتسامة خبيثة، وهو يطبع قلبه على يدها.
- أكيد طبعًا ومن أول نظرة يا غزال وأنتِ بتتدلعي في البردة.
في ضحكة خليعة!
- آه من عيونك أنت.
راح يضحكان في نشوة وزهو ثمَّ ضمها في قوة وراح يهمس:
- آه منك أنتِ يا ملبن!
أخذت أنفاسها تتلاحق، وقالت في صوت لاهث:

- أو لمْ تكتفِ

هزَّ رأسه وأطبق شفتيه على شفتيها ثمَّ قال:

- سوف أمارس الحب على كل جسدك.

****

كاد أن يفتك بأحدهم لولا أن أمسك به الحضور محاولين تهدئته رغم أنَّه معروف بطيبته ونقاء سريرته وحسن خلقه لمْ يكنْ متهور أو أرعن إنما يمتلك الشخصية القويَّة والهيبة الفطرية التي ورثها عن أبيه عمران.

بعد أن استعاد هدوءه أراد هريدي عمران أن يضع حد فاصلًا قاطعًا للأقاويل لمن يتهامسون ويخوضون في عرضه حيث دخل إلى الدار مسرعًا لتنزعج أمه قائلة -ما بك يا بني- ليخرج وفي يده بندقية ألية ويطلق عدة أعيرة في الهواء وكأنَّها تزغرد قائلًا في حدة مهددًا معلنًا الحرب على فضيحة هزت أركان سطوته وأضاعت الكثير من هيبة أبيه شيخ النجع.

- من يجيب سيرة أختي على لسانه سوف أقطعه.

****

في وصلة من الردح أخذت نعمات تكيل السباب والشتائم لجارتها الحاجة وهيبة وفي لمح البصر تجمع العديد من النساء يشاهدون ويستمعون لما يحدث وكأنَّهم جمهور يشاهد مباراة بين فريقين

غير متكافئين، وبعد انتهاء الوصلة اختتمت نعمات كلامها قائلة في تهكم.

- خذوا ثأركم الأول ثمَّ سارت بخطوات واثقة رافعه رأسها لأعلى نافخة صدرها الذي يتدلى أمامها كزوج من القرب التي تعج بالماء.

كان وقع الكلام ذو تأثير كبير على الحاجة وهيبة حيث لمْ يمضِ على قتل الحاج عبد الكريم سوى أيَّام قليلة حتَّى تجرعت من كأس المعايرة والشماتة وحقًا كما يقولون موت وخراب ديار بعد أن قتل بدأ الخراب يحل عليهم من توقف تجارتهم وأخيرًا ما كانت تنتظره والذي يعد سبب أساسي وهام جدًا في انتشار الثأر في الصعيد (المعايرة) خاصة عند تعاير النساء بعضهن البعض.

أنفض الجمع ودخلت الحاجة وهيبة إلى دراها تنكس رأسها، وتمسح دموع كانت يومًا عزيزة لتدخل على حمدان الذي أصبح جليس غرفته حزين شارد لتطرق على الباب ثمَّ تفتح وتنظر عليه وقد بدا وكأنَّه لمْ يراها لتقول:

- يا ولدي لا بد وأن تخرج مِمَّا أنت فيه.

رفع رأسه محاولًا كبت دموعه!

- كيف يا أمى؟!

- سيبها على الله يا بني وكل شيء يتدبر.

- ونعم بالله.

- اِنهض يا بني كي تراعي مصالحنا كلنا في احتياج لك.
- لا أستطيع أن أنسى يا أمي.
- حاول يا بني.
كان قد سمع عمَّا حدث أمام دارهم وما قالته جارتهم لكنه لمْ يستطِعْ أن يفعل شيء.
- يا أمي أنا سمعت ما قالته نعمات وأعرف إنكِ كنت تبكين خارج الغرفة هنا سقطت دموعه لتقترب منه وتحتضنه وتملس على شعره.
- لا يا حمدان يا زينة الشباب ليس أنت من تبكي انهض كالرجال، وخد ثأر أبوك من ولاد الكلب.
- يا أمي أنا وعدت أبويا الله يرحمه إنِّي لا أفعل.
في صرامة وكأنَّها تحولت إلى كائن آخر حيث أزاحته من صدرها، وقالت:
- تريد أن تترك قاتل أبيك ينعم بالحياة وتلبس طرحة كالحريم طيلة عمرك لست ابني إن فعلت ذلك أبوك مات وارتاح، وأنت من ستجني الذل والعار.

****

وكأنَّها تزغرد راحت أصوات الرصاص تنهمر من فوهات البنادق الألية التي يمسك بها كل من عسران وعدلي حيث يطلقون رصاصات النصر ابتهاجًا بالقاتل الذي لمْ يأخذْ أكثر من ثلاث

سنوات كانت ثمن بخس لدم إنسان, وتجرعت عائلة الحاج عبد الكريم من كأس الظلم لتقف في حلقهم مرارة وغصة على كبيرهم وتد العائلة.

انقسم النجع ما بين الفرحة والسعادة والقهر والحصرة ورقص الشيطان على ضحكاتهم التي زلزلت أفئدة من لا يزال في قلبه رأفة وعقل يخشى من هوة سحيقة تنتظرهم جميعًا وقد أمسك عبد الفضيل بالخرازانة، وبشال ثمَّ ربطه على وسطه رافعًا الجلباب لأعلى لتظهر رجليه الحافية.

ومن ثمَّ أخذ يتمايل على صوت المزمار البلدي كانت رجليه تدك في الأرض وتثير بعض من الأتربة ولمْ يلبثْ إن أمسك عدلى الخرازنة وراح يتباريان في الرقص وانتابت الجميع نوبة ضحك حتَّى كاد أن يقع أبو زيد من القهقة وهو يلوح بيده ويقول -أيوى يا عم عبد الفضيل- وراح محمود يقفز فرحًا بشيء لمْ يفقه منه سوى أن جده يفعل ما يراه في مجالس النساء، وكان عليه أن يشاركه الرقص وقد أمسك بعصا صغيرة وأدهشهم تحطيبًا ليقول عدلي مشجعًا وهو يجز على أسنانه -أيوى يا واد أديها- بين هذا وذاك لا يزال قلبًا محبًا وصادقًا في مشاعره يتودد كثيرًا، ولا يحبني إلَّا خيبة الأمل ضناه الشوق، وانهكه طول التمنى لكن دائمًا ما يغلب حبه سخطه وتودده جفاه لمْ ينسَ يومًا حينما كانا يلهوان عريس وعروسة وهي تنظر له في خجل كأنَّه حقًا عريسها وتتورد

بحمرة الخجل عندما يقبلها.
دخلت نسمة إلى دار عمها في خطوات خجولة حزينة لترى زوجة عمها التي جلست على الأرض في المندرة تضع يدها على خدها والتي لم تلاحظ دخولها لتقول نسمة:
- كيف حالك يا مرات عمي؟
رفعت الحاجة وهيبة رأسها في صعوبة، وقالت في صوت واهن حزين.
- الحمد لله يا بنيتي.
اقتربت نسمة فيها ثمَّ انحنت وقبلتها في خديها، وقالت:
-هل تريدين أن أفعل لك شيء يا مرات عمي؟
- كتر خيرك يا بنيتي اعملي كوباية شاي لحمدان.
حاولت نسمة أن تداري فرحة قلبها عند سماع كلمة حمدان إنَّها بالفعل تريد أن تراه وتود لو أن تصنع له أي شيء حتَّى وأن كان كوب شاي.
- من عنيا!
- تسلمي يا بنيتي.
كان حمدان لا يزال جليس حجرته التي لا يخرج منها إلا قليلًا، وقد أمسك صورة أبيه وراح يحدثه شاكيًا وقد اِغرورقت عيناه بالدموع الله يرحمك يا أبويا لا أعرف ماذا أفعل؟ فقد ضاقت بيا السبل. . ثمَّ أخذ يهز رأسه وسالت دموعه محدثًا نفسه -الحمد

لله يارب لطفك- ليسمع طرق على الباب سريعًا يمسح دموعه بالشال ثمَّ قال:
- ادخل.
دخلت نسمة في خطوات متئدة تحمل على يديها صينية عليها كوب الشاي قائلة في لهجة حانية وصوت رقيق:
- كيف حالك يا اِبن عمي؟
- الحمد لله يا بنت عمي شكرًا على الشاي.
- العفو.
أمسك حمدان كوب الشاي من على الصينية ومن ثمَّ استدارت نسمة، وسارت نحو الباب، وقبل أن تخرج التفتت إليه وبعد لحظات صمت قالت:
- ممكن أتحدث معك قليلًا يا حمدان.
هز حمدان رأسه، وقال:
- خير إن شاء الله يا نسمة.
اقتربت منه، وقالت في لهجة حانية:
- يا ابن عمي أنت إنسان متعلم وتعلم أن كل شيء قضاء وقدر أتركها على الله وربنا كبير.
هزَّ حمدان رأسه في حزن ونظر في الأسفل وقال في صعوبة:
- ونعم بالله.
- ربنا يصبرك ويصبرنا يا حمدان.

- والثأر يا نسمة أنا محتار.
-فوض أمرك لله العبد في التفكير والرب في التدبير.

****

ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب.
كانت فايزة تنعم بحياة هادئة تهنئ بزوج شبه متفاني في حبها يكد ويعمل من أجل راحتها وقد ترك لها لجام حياتهما لكنها لمْ تحسنْ القيادة بل ساقتهما إلى ضياع محتم وانصاعت لغرائزها ولمكائد الشيطان وفتحت أذنيها لأول طارق على باب عواطفها من يتلاعب بالبيضة والحجر قواد محترف من يعيش على عرق أجساد النساء ثلاثة أسابيع كانت كافية بأن ينهل ممدوح من جسد فايزة، وامتصاص رحيقها، وقد اينعت وحان ميعاد قطفها ولمْ تلبثْ إن شعرت بالتغيير وظهرت نوايا ممدوح وصار يعرض عنها حتَّى وإن -تلزقت- فيه ومرت الليالي تلو الأخرى، ولم يقترب منها حيث كان ينام حتَّى العصر ثمَّ يستيقظ ويتناول الإفطار ويخرج ولا تعلم إلى أين يذهب؟ إنما كان يعود إليها عند حلول الصباح يترنح فاقد للوعي حتَّى صار مخدعها بارد فاتر تتقلب يمينًا ويسارًا ولا تجد إلا الحوائط، ولم يقتصر الأمر على ذلك إنما كانت تعاني خوفًا ورهبة لا توصف ترتجف من أي مصدر للصوت حتَّى وإن كان لا يدعو لذلك فتح باب الشقة حيث دخل ممدوح كعادته يترنح ومعه رجل ضخم البنيان ومن ثمَّ قذف بنفسه على

أقرب مقعد لتسيقظ فايزة مفزوعه من نوم جاد بدموع العين وشق الأنفس كانت فايزة كالبركان أرادت أن تثور في وجهه ولما لا وهي لمْ ترضَ بمن جعلها ست بيت لأنَّه لمْ يكنْ يستطيع أن يعبر عن مشاعره لترضخ بمن صار يعاملهما وكأنَّها حجر خادمة بدون أجر لا قيمة لها.

نهضت مسرعة متجة إلى الصالة مرتدية روب شفاف لتجده متكوم على كرسي لا يدري بما حوله لتقترب منه وتصيح:

- تتركني وتعود مع آذان الفجر أنا لمْ أترك زوجي وعائلتي من أجل هذا.

فتح ممدوح عينيه في صعوبة ثمَّ قال في لهجة حادة:

- اغلقي فمك أنا لا أطيق أن أسمع صوتك.

وضعت يدها في وسطها كانت لا تزال لا ترى الرجل الآخر الذي يجلس في صمت يتفحص فيها لتكمل قائلة في شبة تحدي.

-هذا الحال لا يعجبني أن استمريت هكذا سوف أتركك وارحل. . . هنا وقعت عيناها على الرجل أمسكت بالروب وحاولت ضمه وقالت في ذهول. . . من هذا؟! حاول جاهدًا أن يقف على قدميه ثمَّ اقترب منها وصفعها على وجهها فى قوة قائلًا في لهجة خشنة حادة وقد تحول حيث احمرت عيناه.

- في ستين داهية لا أريد أن أرى وجهك لو أردت البقاء هنا لا بد وأن تنفذي ما أطلبه منك.

ارتمت على الكرسي ووضعت يدها على وجهها وأخذت تبكي ليكمل ممدوح:

- من الغد تنزلي الشغل.

رفعت وجهها وقد اتسعت حدقه عيناها، وقالت:

- شغل؟! أنا لا يمكن اشتغل.

اقترب منها ثمَّ أمسك بشعرها حتَّى كاد أن يجتثه وقرب وجهه من وجهها وقال:

-أنا كنت سوف أجعل هذا يتم في الغد لكن بما إنك كلبة سوف أجعله يتم الآن. . .

نظر إلى الشخص الذى جاء معه والذى لايزال يدقق النظر إلى فايزة وكأنَّها بضاعة يعاينها جيدًا قبل الشراء. . . ليكمل ممدوح:

- الليلة للتك يا معلم عتمان.

ما لبث أن قال ممدوح له ذلك حتَّى نهض عتمان الذي بدا كالوحش من حيث جسده الضخم الممتلئ ثمَّ أخذ ينظر إلى فايزة التي بدأ الرعب والرهبة يملاءها وقبل أن تتكلم انقض عليها ثمَّ رفعها من على المقعد واضعًا إياها بين ذراعيه حتَّى بدت كالغزال بين أنياب نمر هائل.

****

المصائب لا تأتي فرادى.

كان حمدان على يقين تام بأن زواجه من ضحى مع كل ما حدث

صار ضربًا من المستحيل لكن يبقى شيء ما في قلبه متمسكًا بأمل يكاد يكون منعدم الواقع يقول أن كل شيء بينهما قد انتهى تمامًا, رفض أن يهربا سويًّا وفي قراره نفسه كان يتمنى ذلك لكن ما باليد حيله أيضحي بكل شيء بأمه وأخوه وعائلته وأرضه من أجل قلبه كان لازمًا عليه أن يحكم عقله وقد كان، لكن مع ذلك أحيانًا يشتاق إليها عندما يخفق قلبه مرددًا اسمها إنَّه لا يزال يحبها ولا يمكن أن ينساها وطالما لمْ تتزوجْ فلا يزال يتمنى أن تكون له يومًا ما وعندما يخطر على باله ذلك سريعًا ما ينفض رأسه وكأنَّه يريد أن يمحي تلك الفكرة لكن لمْ يستطِع.

أصبح ضرب النار في النجع يدوي كل يوم يصمت قليلًا ثمَّ سرعان ما يعود كنار لا تنطفئ تخفت، وعندما تهب عليها رياح يجلعها -توهوج- لكن في هذه المرة كان الرصاصات تنطلق ابتهاجًا وإعلانًا عن خطوبة ضحى لأبو زيد.

داخل حجرتها الضيقة متآكلة الحوائط، وعلى سريرها الحديدي ذو الأعمدة الأربع تستلق ضحى مفتوحة العينان تنظر إلى سقف حجرتها الذي صار جليس دائم لحزنها يسمع صرخات قلبها ولهيب أنفاسها كم من الأيام طالت على فؤاد اكتوى بنار الهوى، وحبيب فرقه الجهل والتعصب والحقد.

****

بعد أن ألبسه طرحة الذل وكسر شوكته وكتم على أنفاسه حتَّى أصبح كالكلب الذي يعوي ولا يخيف أحد, كان على حنفي أن يستعيد هيبته التي فقدت بفعل فاعل والفاعل هنا كمال عمران حدثته نفسه كثيرًا بأن يقتله ويقتص لكرامته لكن على أخر لحظة يجبن ما وراء كمال كان يخيفه ويجعله يفكر ألف مرة قبل أن يقدم عليه لكن عندما يشتد به الغيظ يحدث نفسه على ماذا يخاف؟! إنَّه الآن خسر كل شيء المرأة مصدر دخله المأوى الذي كان يأويه حتَّى الرهبة التي كانت تسيطر على من يتعامل معه قد زالت إذا على ماذا يخاف؟! وقد أضحى يتسول السجائر بعد أن كان لا يدخن إلا السجائر المستوردة وأخيرًا حسم أمره سن المطوى جيدًا وراح يرصد تحركات كمال الذي ودعته زبيدة بالقبلات وابتسامة رقيقة لتقول بعد أن طرقت على صدره العريض.

- ربنا يخليك لنا يا حبيبي.

في ابتسامة واسعة وقد انبسطت أساريره وانتشى من السعادة حتَّى انتفخ صدره كبالون قذفت فيه دفعة هائلة من الهواء.

- حقًا أنا حبيبك يا زبيدة.

وهي تضحك في خلاعة!

- أكيد يا حبيبي نحن من غيرك ولا شيء وأنت تحميني وتأتي إلينا بكل احتياجاتنا.

ضمها ثمَّ قبل جبهتها، وقال:

- أنت تأمري يا قمر.

وضع يده في جيب السديري ثمَّ أخرج حافظة نقوده التي تكتظ بالأموال ثمَّ أخرج مبلغ كبير ووضعه في صدر زبيدة التي ابتهجت ليقول:

- هل تحتاجين شيء آخر قبل أن أغادر.

أمسكت كف يده ثمَّ طبعت قبلة رقيقة عليها، وقالت:

- خيرك كثير يا حبيبي ربنا ما يحرمني منك أبدًا.

غادر كمال وأغلقت زبيدة الباب وراءه وراح يسير وقد ملئه شعور بالسعادة يهز رأسه طربًا وعشقًا ويدندن -ويابت جملك هبشني والهبشة جات في العباية رمان صدرك دوشني خلى فطوري عشايا-! أخذ حنفي وقت طويل كي يرصد تحركات كمال وأخيرًا خطط جيدًا لما وسوس به الشيطان.

بعد مضى وقت ليس بالقصير وحنفي يتربص له في مدخل النجع بين أعواد الذرة الطويلة كان الوقت قد صار بعد منتصف الليل ومن وقت لآخر تهب ريح باردة لتهدى لو قليلًا من توتره وحنقه، وقد خلى النجع من أي حركة حيث غرق في ظلام دامس وسكون بدا مخيفًا راح حنفي يدخن السيجارة تلو الأخرى في عصبية وضيق بالغ حتَّى لاحت من بعيد أضواء سيارة ثواني وكانت تقف أمامه ليخرج منها كمال الذي رفع يده قائلًا:

- ألف شكر يا عم عبد الباسط.
غادرة السيارة وراح كمال يسير ضاربًا بعصاه الأرض، وقد اقترب من دواره ليأتي حنفي من خلفه سريعًا ويمسك برقبته وقبل أن يستوعب كمال ماذا يحدث كان حنفي قد حز رقبته.

****

٨

- لا أريد أن أسمع صوتك يا جبان!

- يا أمى لعنة الدم سوف تطول الجميع والعنف لا يولد إلا العنف.

في بكاء ونحيب وقد دفست رأسها في عصبتها كان الحزن يعتصر قلبها حزنًا وألم على رجل أكرمها لمْ يسمعها إلا طيب الكلام وحسن المعاشرة كان قلبها يفيض حب وحنان اقترب حمدان من أمه، وقال في لهجة حانية وهو يربت عليها.

- من أجل خاطري لا تبكي يا أمي قول لي ماذا أفعل؟

رفعت رأسها ثمَّ قالت:

- أنا قلت لك قبل ذلك لا بد وأن تأخذ ثأر أبوك.

- يا أمي حق أبويا إن شاء الله سوف يأتي إن لمْ يكنْ في الدنيا سيكون في الآخرة.

في لهجة يشوبها حسرة!

- يا بني لا بد وأن تأخذ ثأر أبوك حتَّى ترفع رأسك بين الناس.

جلس حمدان على الدكة، ووضع كف يده على رأسها ثمَّ قال:

- وما أخرتها يا أمي؟!
- يا والدي المكتوب مكتوب ولن تهنئ لي لقمة قبل أن تأخذ بالثأر.
أخذ حمدان يهز رأسه تعبيرًا عن عدم الرضا ثمَّ قال:
- يا أمي أنا سوف أسافر لن أمكث في بلد ظالمة تختال أحلام شبابها.
نظرت إليه في حدة وفزع ثمَّ ضربت بكف يدها على صدرها:
- تسافر تريد أن تهرب!
- نعم يا أمي أريد أن أهرب من الخراب والجحيم الذي تريديني أن أفتح له الباب. . . همَّ واقفًا ثمَّ مشى بضع خطوات وأكمل. . . سوف أذهب إلى مكتب العمل في المحافظة.
خرج حمدان مسرعًا قبل أن تتكلم أمه وقفل البوابة في قوة حتَّى أحدثت صوت قوي وراح يسير على الحاجر حتَّى يأخذ سيارة كي يذهب إلى المحافظة أوقف سيارة أجرة ثمَّ صعد وجلس في المقعد الأمامي إلى جوار السائق، وقال:
- على المحافظة يا عم حسين.
- مخصوص يا أستاذ حمدان.
هزَّ رأسه:
- نعم توكل على الله.
أدار المحرك لتنطلق السيارة كانت الأفكار، والمشاعر تتصارع داخل

حمدان لمْ يكن يدري ماذا يفعل حقًا بعد قتل أبيه صار النجع كالجحيم كل شيء كئيب لا بد وأن يفر من براثن مجتمع لا شيء فيه سوى الأقاويل والثأر والخلافات التي تنشأ من العدم وعلى أتفه الأشياء لكن لا يزال صوت أمه يدوي في أذنيه -أنت جبان- لمْ يكنْ حمدان أبدًا جبان إنما هو يريد الحياة يريد أن يعيش في سلام يتزوج ينجب ويبني عائلة كذلك فإنَّه في قراره نفسه يتحصر على أبيه، وبالفعل يريد القصاص يريد أن يقتص من قاتل أبيه ويمزقه إرب، وتتصارع المشاعر ولا يعلم ماذا يفعل هل يسافر ويترك أمه وأخواته وثأر أبيه ويظل يعاير طيلة حياته أم يأخذ بالثأر ويفتح باب الجحيم على نفسه وعلى عائلته ليستفيق على صوت عم حسين:

- وصلنا يا أستاذ حمدان.

توقفت السيارة إلى جانب كافتريا هادئة مطلة على النيل وجلس حمدان ثواني قليلة حتَّى جاء الجرسون ثمَّ مال بجسده قليلًا إلى الأمام، وقال:

- تريد أن تشرب شيء يا أستاذ.

- انتظر قليلًا سوف أطلبك.

أومأ الجرسون برأسه ثمَّ ذهب وراح حمدان ينظر إلى النيل الذي يستلهم عطائه وصلابته في مواجهة التحديات بكل صبر على مدار الآف السنين وهو لا يزال يجري متخذًا طريقه لا يكل ولا يمل نعم

إنَّه يحتاج إلى تلك الروح وإلى الصبر.

لمْ تمضِ سوى دقائق حتَّى دخل عليه شاب في مثل عمره يرتدي بنطلون وقميص وقد بدا أنيقًا لينهض حمدان سريعًا ويتعانقا:

- كيف حالك يا عصام؟ والله وحشني كثيرًا!

في ابتسامه وقد انبسطت أساريرهما:

- أنت أيضاً وحشتني كثيرًا أول مرة أراك منذ وقت طويل.

وهو يهز رأسه ويقول في غصه:

- مسير الحي يتلاقى يا صديقي.

نادى حمدان على الجرسون:

- ماذا تريد أن تشرب يا عصام؟

- شاي

- اثنان شاي لو سمحت.

نظر عصام إلى حمدان ثمَّ مسح على جبهته، وقال:

- لماذا تريد أن تسافر؟!

نظر حمدان في الأرض ثمَّ هزَّ رأسه، وقال في حرقة:

- يااه يا عصام.

في أسى وقد انتقل إليه الإحساس بالكدر والوجع الذي فيه صديقه.

- كل شيء مقدر ومكتوب يا صديقي لكن لا يمكن أن يكون السفر هو الحل.

وهو ينظر إليه في حزن:
- ممكن تقول لي أنت على حل آخر الثأر أمامي والمعايرة والذل خلفي إن أخذت بالثأر الله وحده يعلم ما قد يحدث وإن لمْ أأخذ سوف أعيش -مطاطي- رأسي والعار يلاحقني طيلة عمري.
هزَّ عصام رأسه ومسح على جبهته، وقبل أن يتحدث أتى الجرسون بالشاي ليأخذ رشفة ثمَّ يقول في لهجة الناصح.
- لا أعرف ما أقوله لك أنت على حق يا صديقي لكن هل تسافر وتترك أمك وأخوك وأرضك وأملاكك فكر جيدًا
أخذ حمدان رشفة شاي ثمَّ قال:
- من أجل ذلك أنا في حيرة.
أخذ الاثنان يحتسيان الشاي ثمَّ قال عصام:
- سوف أبحث لك عن عقد عمل مناسب واتصل بك.
في ابتسامة حزينة هز حمدان رأسه:
- تمام يا صديقي
نادى حمدان على الجرسون وأعطاه الحساب ثمَّ نهض عصام، وقال:
- أنا ذاهب هل تأتي معي؟
- لا أنا سوف أجلس هنا قليلًا اِتفضل أنت.
تصافح الاثنان ومضى عصام إلى طريقه ليتوقف بعد بضع خطوات، والتفت إلى الوراء ثمَّ قال في صوت عالي:

- هل تعتقد أن الحكومة تريد حقًا أن تقضي على الثأر؟
ابتسم حمدان في سخرية ثمَّ أشار بيده قائلًا:
- أراك على خير يا صديقي.
جلس حمدان يفكر في ما آلت إليه الأحداث وما ينتظره إنَّه في حيرة من أمره وقد صارت حياته كابوس مزعج ليستفيق على صوت واهن يقول:
- الثأر سيف حاد وضع على الرقبة إن حاولت الإمساك به أنت أول من سيجرح كان ذلك صوت رجل ضعيفًا هزيلًا يمسك برغيف خبز وأمامه كوب شاي وقبل أن يتحدث حمدان أكمل العجوز دنيا حقيرة لا تدوم أبدًا على حال الذي أمامك هذا يا بني كان في وقت ما شاب مليء بالحيوية كله طاقة يشعر أن الدنيا كلها ملك يديه حتَّى حدث ما حدث. . . هنا توقف الرجل وهز رأسه وقال. . . الحمد لله.
ما بين شعور باليأس، والحزن والإشفاق على ذلك الرجل قال حمدان:
- ربنا كبير يا حاج لكن أنا في محنة شديدة ولا أعرف الحل.
هز العجوز رأسه ليجلس جانب حمدان ويقول:
- تسمح لي يا بني أجلس جانبك؟
وهو يبتسم:
- اتفضل يا حاج حضرتك تشرفني.

أخذ العجوز رشفة شاي وقضمة صغيرة من رغيف الخبز وراح يلوكها بأسنانه الأمامية في صعوبة ثمَّ قال:

- لا يوجد شيء في الدنيا ليس له حل ربنا قادر على كل شيء.

وهو يهز رأسه في حزن مكبوت!

- أتمنى من الله.

- تكلم يا بني فضفض عن نفسك.

في مرارة!

- ياه يا حاج ماذا أقول؟

- أي شيء المهم زيح عن قلبك.

رجع حمدان ظهره إلى الوراء وصمت قليلًا ثمَّ أخذ نفس عميق، وقال:

- أنا من إحدى عائلات الفلاحين في الصعيد صحيح نحن أغنياء لكن في مقياس الصعيد كما تعرف نحن مضطهدون، ونعامل على أننا مواطنين درجة تانية لا نستطيع أن نأخذ حقنا مهما وقع علينا من ظلم كنت أحيا في سلام حتَّى اغتالت يد ظالمه من أيدي أبناء الهوارة وقتل أبويا غدرًا وظلمًا وبما أنهم السادة ونحن العبيد فيجب علينا أن لا نطالب بحقنا لكن أنت تعلم أن المعايرة والمكايدة شيء يحاصرك أينما ذهبت حتَّى وإن التزمت دارك لذلك أنا في حيرة ما بين أن أخذ ثأر أبي من هؤلاء الظلمه، وحينها الله وحده يعلم النتائج أَم أسكت وأتحمل الذل. . . هزَّ

حمدان رأسه وسالت دموعه على خديه. . . ليقول العجوز:
- وحد الله يا بني واترك الأمر للحكومة تأخذ لك حقك
ابتسم حمدان في سخرية، وقال:
- الحكومة!! أريد أن أقول لك أن قاتل أبي أخذ خمس سنوات سجن فقط هي ثمن حياة رجل كبير عائلة رجل طيب كريم يشهد له الجميع.
هزَّ العجوز رأسه في أسى ثمَّ قال:
- اعلم يا بني كل ما تقول من مرارة لكن أحب أن أقول لك اِبعد عن فكرة الثأر واترك الأمر لله على أن تتحمل كلام المعايرة الذي ستنتهي مع مرور الوقت وأنت واضح أنك متعلم وتعرف أن ذاكرة الناس في مصر قصيرة جدًا أفضل من تأخذ بالثأر وتترك أهلك وتعيش مطارد في خوف ورعب طيلة عمرك وأنا نموذج حي أمامك يروى يا بني والله لن ينساك.
هزَّ حمدان رأسه وتنهد ثمَّ قال:
- ونعم بالله أستاذنك يا حاج كي أذهب.
- أتفضل يا بني ربنا يحفظك ويبعد عنك أولاد الحرام.
مضى حمدان في طريقه يسير من شارع إلى شارع مفكر في كلمات العجوز محدثًا نفسه: -أنا من نشأ في مجتمع لا يحترم إلا القوى مجتمع يدعى الطيبة والتدين وهو يقدس الأشخاص ويقف إلى جانب القوي ضد الضعيف يتفنن في الظلم، والتحايل على القانون

مجتمع الجهلاء هم من يتصدرون المشهد، الله يرحمك يا أبويا عشت طيلة عمرك تطاطي من أجل أن تحصل على الأمان لكن بعد فوات الأوان اكتشفنا أن الأمان لا يمكن أن يلتصق بالذل-.
شعر حمدان بألم في قدمه من فرط المشى لوقت طويل دون توقف حتَّى وقعت عيناه على شيء لمْ يكنْ يتوقعه أبدًا وذهل من هول المفاجأة.

****

ضاحي كالكثير من الناس الذين يحلمون بالثراء دون كد أو اجتهاد كان يحفر بيديه حلمًا لعله يجده في منزله باحثًا عن كنز بدا وهمًا حينما قال له أحد الدجالين أن أسفل منزله أثار وكالغريق الذي يتشبث بقشة التقط ضاحي الكلمة وراح يحفر في كل مكان بالمنزل إنَّه في ورطة حقيقة حيث أنذره عدلي إن لم يسدد المال الذي اقترضه لن يمهله أكثر من ذلك وسيقدم الايصالات إلى النيابة حينها سيكون السجن في انتظاره ولربما أخذ عدلي الدار منه وازداد توتره وخفقان قلبه بشدة بعد كل حفنة تراب يخرجها حتَّى بدا وكأنَّه يحفر بئر ليس له قاع, والحقيقة أن منازل كثيرة في الصعيد تنهال على أصحابها الذين يبحثون عن شيء غير موجود إلَّا في كلمات نصابون متحرفون يتخذون من السذج الطماعين الذين يهرولون وراء المال الذي لا يفعلون به شيء سوى تكنيزه وجعله كالأثار مثل التي يبحثون عنها.

وقف ضاحي في منتصف الدار ينظر إلى الحفرة العميقة في حسرة ويكاد التعب واليأس يفتكان به ثمَّ نظر إلى أكوام التراب وأخذ يهز في رأسه ويضرب بكفيه على خدوده ثمَّ أمسك العمة، وقذف بها إلى داخل الحفرة ودفس رأسه في التراب، وقال وهو يبكى في حرقة:

-يا مراري الطافح يا أنا يا أمي- حتَّى سمع طرق على الباب وارتعش قلبه رعبًا عندما سمع من يطرق يقول:

- واد يا ضاحي أنا عمك عدلي!

****

يقال أن خبطتين في الرأس توجع فما بالنا بمصيبتان لمْ يكنْ أحدهما على الخاطر لو كان جمل كان اتهد، حاول كثيرًا التماسك لكن قلبه اتوجع أكثر من اللازم على فضيحة وعار تسببت فيهما ابنته، وقد حاول جاهدًا أن يخرس جميع الألسنة التي تخوض في عرضه ملزقًا التهمة في علي بأنَّه قتلها وأخفى جثتها لكن ماذا يفعل في مصيبة قتل ابنه في الثأر؟!

- حنفى أبو الروس من قتل ابنك يا شيخ عمران!

- حضرتك متأكد يا باشا؟

- أكيد يا عمران التحريات جميعها أكدت ذلك.

داخل مكتب مأمور المركز يجلس عمران، وقد بدا الهم والحزن على ملامح وجهه ممسكًا العصا بكلتا يديه وخلف مكتبه يجلس

العميد شوقي الذي يعتبر من أصدقاء الشيخ عمران وكان على علم تام بما حدث له ليقول محاولًا مواساته:

- اتركها على الله يا عمران

هزَّ الشيخ عمران رأس،ه وقال في صوت ضعيف على غير المعتاد:

- ونعم بالله. . . صمت قليلًا ثمَّ أكمل. . . أريد منك خدمة يا باشا.

هزَّ العميد شوقي رأسه وقال:

- تأمر يا عمران نحن أصدقاء يا راجل.

- أريد منك أن لا يتم القبض عليه حتَّى نأخذ بالثأر.

مسح العميد شوقي على وجهه ثمَّ عاد بظهره للوراء وأخذ نفس عميق، وقال وهو يهز رأسه في بطء.

- تمام من أجل خاطرك يا عمران، وربنا يفك كربك.

وهو ينهض في صعوبة مستندًا على العصا:

- كتر خيرك يا شوقي.

****

إنَّها هي لا يمكن أن تكون غيرها حتَّى وأن بدت غير ذلك حيث تغيرت كليًّا وكأنَّها استبدلت بواحدة أخرى ترتدى ملابس ضيقة تحز في أفخاذها وتبرز مؤخرتها وجزء كبير من صدرها الذي صار مترهلًا ككرة من الجلد فرغت من الهواء من قوة الركل ووجه شاحب حتَّى وإن حاولت إخفاء ذلك خلف مساحيق التجميل

والتقت عيناهما، وارتجف قلبها وبعد لحظات صمت قال حمدان في دهشة:

- فايزة!!

نظرت في الأرض متحاشية النظر إليه وخيم الصمت لحظات حتَّى قال في تردد:

- أين ذهبت يا فايزة؟!

رفعت وجهها وقالت والدموع في عيناها!

- في بلاد الله يا حمدان.

معاتبًا متحاشيًا النظر إليها.

- لماذا تركتِ أهلك والبلد؟

هنا لمْ تستطِعْ أن تسيطر على مشاعرها وتمنع دموعها أكثر من ذلك لتسقط على وجنتيها، وتقول في حرقة وهي تهز رأسها.

- مقدر ومكتوب يا حمدان.

- الشيخ عمران حالتة صعبة جدًا.

راحت الدموع تنهر حارة كحرقة قلبها الذي صار يتألم حزنًا وندمًا!

هزت رأسها ولمْ تستطعْ الكلام ليكمل حمدان.

- لا بد وأن تعودي إلى أهلك حتَّى يرفعون رأسهم أنتِ تسببتي لهم في ألم وحزن وانكسار ليس له علاج.

- كيف حال أبويا وأمي وأخوتي؟

في أسى:

- صدقيني يا فايزة صاروا في أسوء حال خاصة بعد قتل أخيكِ كمال ضربت فايزة على صدرها لتعقبها باللطم على خديها لتقول في ألم شديد:

- يا مراري. . . يا مراري!

هزَّ حمدان رأسه ودمعت عيناه وقال:

- الله يرحمه!

- حقًا ما تقوله يا حمدان؟

- والله كما أقول لك من أجل ذلك لا بد وأن تعودي حتَّى تخففي من صدمة أبوكِ.

وهي تهز رأسها ولا زالت تبكي في حرقة!

-قد فات الأوان.

- ماذا تفعلين في حياتك؟

- أنا أخطات والآن أنال عقابي، عودتي سوف تدمر أبويا وتكسره أكثر.

- ربنا غفور رحيم يا فايزة توبي إلى الله واندمي.

نظرت في الأرض ثمَّ قالت على استحياء:

- ممكن أطلب منك طلب.

-اتفضلي:

في انكسار وهي تمسح دموعها!

- لا تقول إنك رأيتني أرجوك يا حمدان.

وهو يهز رأسه في لهجة حانية:
-تأكدي إني لن أقول لأحد وربنا معاكِ.
وضع يده في جيبه ثمَّ اخرج نقود، ومد يده إلى فايزة ثمَّ أكمل:
- خدي بالك من نفسك وربنا معاكِ.
أخذت النقود وقالت:
- ربنا يبارك فيك يا حمدان ويكرمك وخذ بالك أنت من نفسك
تصافح الاثنان ثمَّ مشى كلًا منهما إلى طريق بدا لا نهاية له.

****

تلك ليلة حالكة السواد ظلمة الليل كانت أقل سواد من قلوب تحجرت بغلظة لا يحركها شيء حتَّى وإن كانت رياح باردة هبت على النجع لمْ يسبقْ لها مثيل كل ذلك لمْ يمنع الأطفال رثة الثياب الذين قد تجمعوا أمام المنازل وقد علت أصوات القرع على الطبول، والدق على الأواني حيث أصيب النجع بالرعب عند رؤية القمر يكاد يختنق كما يطلقون على ظاهرة -خسوف القمر- بينما راح البعض الآخر يجمع الأخشاب ويشعل النار ثمَّ يضعون أيديهم فوقها ثمَّ فركها في بعضها للتدفئه وراحت النساء تصفق وتزعرد.
وتضرب بأرجلها على الأرض من بين هؤلاء سعدية التي يسمع رنة خلخالها الذهبي الذي يظهر من تحت جلبابها القصير في نوبة مكايدة.

كلما ازداد القمر سواد كلما زاد القرع، والتصفيق والجميع ينظرو إلى السماء ويقولون -يارب. . . يارب-.

كان أمير نائم على شكل شبه دائري حيث اِلتف حول نفسه متدثرًا بالبطانية من برد بدا ينخر في العظام حتَّى دخل سفروت في خطوات سريعة مصفقًا ويقفز كالكرة الجلد، ويقول في صوت طفولي غير مفهوم.

- أمير. . . أمير.

لتنادي عليه الحاجة نجية:

- لماذا تُيقظ أمير من النوم يا زفت؟

في صوت متقطع، وهو يشير بيديه إلى الخارج مذعورًا.

- القمر. . . القمر يا ستي الحاجة.

استيقظ أمير من النوم قائلًا في غضب:

- سفروت يا واكل أبوك.

- القمر يا أمير اتخنق.

قفز أمير من على السرير، وراح يركض خارج المنزل ليرى القمر الذي يكاد يختنق ويرى التصفيق والقرع على الأواني والطبل وشعر بذعر ليدخل مسرعًا إلى المندره ويقول إلى أبيه الشيخ عمران:

- القمر مخنوق يا أبويا.

نظر إليه الشيخ عمران الذي يتكأ على الدكة حزينًا في المندرة

وقال:

- لا يا والدي دا خسوف القمر.

****

ترددت كثيرًا وفكرت مليًّا وطويلًا أيامًا تمر عليها عانت فيها ولا زالت من قبح لسانه وطول يده وعنف مضاجعة يوميًّا لا تنقطع حتَّى أضحت كالمبولة لا تخلو إلَّا نادرًا من الذين يريدون قضاء حاجاتهم أطالت فايزة النظر إلى مرآتها، وتحسرت على وجه بدا شاحب وعينان أرهقتهما كثرة البكاء والنحيب والسهر وجسد أصابه الذبول والوهن أمسكت بزجاجة عطر ورفعت أبطها لكنَّها توقفت ثمَّ هزت رأسها وسالت دموعها على ما وصلت إليه لتقذف بزجاجة العطر في المرآة لتتحطم وكأنَّها تريد أن تمحي هذه الصورة التي صارت عليها.

جلست على أقرب كرسي ووضعت وجهها بين يديها وراحت تبكي كما لمْ تبكِ من قبل تتذكر الماضي البعيد حينما كانت طفلة معززة مكرمة في بيت أبيها شيخ البلد تلعب وتلهو تنعم بكل ما تحلم به فتيات النجع من عز وتدليل وعندما بدأت تنضج صارت تعيش في كوكب آخر أحيط بنظرات المعجبين المغرمين بإشراقة وجهها الخمري وشفتاها الحمراوين وعينان واسعتان غمزتان وصدر مكتنز ينبض بالحيوية وقوام ناضج يخطف العقول قبل الأبصار.

كانت عند تمر على بعض الشباب في النجع تسحرهم وكأنَّهم

تحت تأثير مخدر وسرعان ما يحاول بعضهم أن يثير اهتمامها لعله ينال رضاها وابتسامة من شفتاها فيقف متحدثًا بصوت مرتفع أو يضحك بصوت عالي أو يثير معركة يبرز فيها قوته وعضلاته لكن هيهات أن تزحزح هذه الأفعال برجها العاجي التي وضعت نفسها فيه غير مكترثة بكل هؤلاء ونادرًا ما كانت تعطف عليهم بابتسامة ونظرة خاطفة وكأنَّهم مجموعة متسولين تعطيهم حسنة من كنز جمالها, كانت حلم لكل من يريد أن يحلم وحصن صعب المنال حتَّى على أشجع الفرسان.

رفعت رأسها ومسحت دموعها ثمَّ نظرت إلى الهاتف المحمول ومضت لحظات حتَّى ومضت عيناها ثمَّ أمسكت به وطلبت رقم وفتحت السماعة الخارجية ليأتي صوت الطرف الآخر لطفل صغير:

- ألو.

في تردد وصمت لحظات. . .

- ممكن أكلم الحاجة نجية؟

- أقول لها من حضرتك؟

- أنت أمير.

- نعم.

- كيف حالك يا أمير؟

- الحمد لله من حضرتك؟

- قول لها قريبتكم.

كان قلبها يختلج خوفًا وأطرافها ترتعش, لمْ تكنْ تنتظر عندما هربت أن تحن يومًا لسماع صوت أمها أو أحد من عائلتها, ركضت خلف سراب سرعان ما تحول إلى كابوس مزعج جاثم على صدرها وحطم إنسانيتها تسمع صوت أمها تقول:

- ألو.

لمْ تجيب لتكرر أمها.

- ألو من؟

في تردد وقد أحست بأن جبل جاثم على لسانها.

- أنا يا أمي

في دهشة وذعر وقد تعرفت على صوتها لكن تريد أن تتأكد أو تكذب أذنها.

- أنتِ من؟!

صمتت لحظات لتقول أمها في صوت مذعور ومقهور في حرقة وغضب!

- أنتِ فايزة؟

-نعم يا أمي أنا بنتك فايزة

في غضب وانفعال!

- ليس عندى بنات بهذا الاسم.

وهي تبكي في استعطاف!

- أنا في احتياج لكِ يا أمي
- في احتياج الآن بعد أن هربت وفضحتينا بهذا الفعل جعلت رأس أبوكِ شيخ البلد في الأرض كسرتي أبوك وأخواتك بعد أن كنا أسياد البلد.
في بكاء!
- سامحينى يا أمي.
في حدة:
- أسامحك يا فاجرة أنتِ تسببتي لنا في عار العمر كله.
- أنا في محنة يا أمي وأحتاج فقط لدعواتك.
- أنا بدعي عليك ليل ونهار أنتِ قسمت ضهر أبيكِ سيد البلد يا فاجرة قلبي وربي غضبانين عليكِ.
-يا أمي. . .
مرت لحظات من الصمت لتقول الحاجة نجية:
- قولِ أين أراضيكِ؟
-. . . . .
-أين أنتِ؟
لم تجيب إنما راحت في نوبة بكاء هستيرى وأغلقت الخط.

****

- يا مرارك الطافح يا ضاحي
كانت هذة آخر كلمات ضاحي الذي أخذ يهيل التراب على نفسه

وينظر إلى الحفرة التى بدت عميقة جدًا وقد انتابته حالة بكاء هستيري كطفل صغير فقد أمه. كانت آخر أمل لديه حتَّى يسدد ديونه، ويبتعد عن طريق ظن أنَّه بعيد, لمْ يكنْ يتخيل أن يأتي عليه يوم يفقد فيه منزله ويصير طريد شريد لكن الآن قد أصبحت حقيقة، وبعد أن تعثر في سداد ديونه لعدلي كان عليه أن يفر ويترك كل شيء خاصة وأن عدلي بالفعل قدم إيصالات الأمانة للنيابة ونال حكم بالحبس وكان على ضاحي أن يختار ما بين السجن أو أن يسدد ما عليه ويتصالح مع عدلي وبما أنَّه لا يمتلك أية أموال فكان عليه أن يضحي بالمنزل غاية عدلي وأمله في أن يكوش على أكبر عدد من منازل النجع حلم قارب على أن يصبح حقيقة كذلك هناك شيئًا آخر حيث أن ضاحي ينتمى لعائلة سالم وابن عم الحاج عبد الكريم وهذا يضاعف من ذلهم لهذة العائلة التي حاولت أن تضع رأسها برأس عائلات الهوارة ترتدي ثوب غير ثوبها ظنت إنَّه بالمال يمكنها تحقيق ذلك وجاء قتل الحاج عبد الكريم كبير العائلة ليقسم ضهرهم وارباك حساباتهم وقضى على أحلامهم وذل كبريائهم، وعندما يأخذ عدلي دار ضاحي تكتمل حلقة ذلهم وكسر نفسهم ووضعهم في المكانة التي لطالما حاولوا أن يتملصوا منها.

في مجلس ضم العديد من كبراء النجع تنازل ضاحي طواعية عن داره لعدلي في عيون يملاءها الحزن والألم والحسرة وقد أمسك

القلم ليمضي على التنازل لكن يده لا تطاوعه ليقول عدلي:
- امضِ يا ضاحي الناس عندها مصالح.
مضت لحظات وضاحي لمْ يمضِ إنما لا يزال يمسك بالقلم ليقول أحد الحضور:
- امضِ يا بني ربنا يهديك.
مضى ضاحي على التنازل في صعوبة وسقطت دمعة جاهد نفسه كثيرًا كي يمنعها ثمَّ نهض وانصرف سريعًا وبعد أن مضى الشهود راح الجميع يباركون لعدلي وما أن تم المراد حتَّى فتح عدلي باب الدار حتَّى تفاجئ بالحفرة العميقة ليقول أحد مرافقيه:
- ضاحى كان يحفر بير.
عدلي:
- كان يبحث عن كنز الأهبل ابن الأهبل!
يقهقه الجميع في حاله نشوة وسعادة!

****

بعد تفكير عميق ترددت الحاجة نجية كثيرًا هل تخبر الشيخ عمران بالمكالمة الهاتفية مع فايزة أم تتكتم على الخبر وتلعب الأمومة دورًا في ذلك.
لكن هيهات أن يحدث وتحكمت فيها العادات والتقاليد والأعراف ما أحدثته فايزة عند هروبها جعل أمها تنزع قلبها وتضع مكانه حجر أصم من الحقد والغل تلك العاهرة التي جلبت لهم العار

حينما تنظر إلى زوجها وأبنائها وما آل إليه حالهم من كسرة نفس يغلي قلبها لا تتمنى شيئًا أكثر من أن تراها حينها من الممكن أن تنتزع كبدها وتلوكه بأسنانها.

نظرت الحاجة نجية إلى الشيخ عمران الذي يجلس على الدكة في وجوم وصمت حزين شارد بعد أن كان وجوده داخل الدار كفيل بأن يفجر براكين الرعب والذعر لكن الآن بدا، وكأنَّه في غيبوبة صارت كلماته قليلة بالكاد يستطيع التحرك يجد صعوبة في التنفس دب في جسده الوهن بعد أن كان نفسه مثل لهيب فرن متوهج لتقول الحاجة نجية في تردد:

- أريد أن أقول لك على شيء يا شيخ.

لم يجيب إنما بدا وكأنَّه لم يسمعها لتقول في صوت عالي:

- في شيء أريد أن أخبرك به يا عمران.

نظر إليها في عيون ناعسة، وقال في صوت واطي:

- خير يا حاجة؟

صمتت قليلًا ثمَّ نظرت في الأرض وقالت:

- فايزة كلمتني في التليفون.

في فزع وقد اعتدل في جلسته:

- ماذا تقولين؟!

- فايزة تكلمت في التليفون.

- متى؟

- في الصباح.
- قالت على مكانها؟
- لا لم تقول مع إنِّي حاولت معها كثيرًا.
هب الشيخ عمران واقفًا ثمَّ أخذ يضرب الأرض بالعصا في غل وجسده ينبض بذرات النار وقال:
- إياكِ أن تكونى تداري عليها؟
- والله يا شيخ لا أعرف.
- قومي فزي أحضري الرقم الذي تكلمت منه.
نهضت الحاجة نجية ثمَّ أمسكت بعده التليفون، ونظرت في شاشة الإظهار ثمَّ قالت للشيخ عمران.
- هذا هو الرقم.
في صوت حاد جاهوري، وانفعال شديد حيث عاد الرعب يدب في أركان الدار:
- واد يا أمير
لب أمير النداء في سرعة وخوف يرتجف كفأر مذعور!
- نعم يا أبويا.
- ورقة وقلم.
أتى أمير سريعًا بالورقة والقلم.
- اكتب الرقم الذي في الإظهار.
كتب أمير الرقم ثمَّ أعطى الورقة ليدخل هريدي فجأة ويقول في

انفعال وقد ومّضت عيناه.

- عرفنا المكان الذى يختبأ فيه حنفي الذي قتل كمال يا أبويا.

****

تلك الليلة لمْ يعرفْ حمدان طعم النوم أغلق على نفسه حجرته وراحت الذكريات تفور في رأسه كفوران ماء عند درجة الغليان حقًا كان يغلي من الداخل يكاد رأسه تنفجر من التفكير كان يضع وجهه بين يديه يحبس دموع تريد أن تسقط كحبات مطر في ليلة شتويَّة لقد جد واجتهد درس، وتعلم حصل على شهادة لمْ يكنْ يحظى بها أحد في النجع ضاع حلمه في أن يصبح سفيرًا ليس لشيء إلَّا كون الجهل والفساد ما زالا يطربان كثيرًا من في المدنية ويعزفان على وتر الشهوات وانطلقت طلقات الرصاص من فوهات البنادق الألية ابتهاجًا بزواج ضحى بأبو زيد كسهام موجهة اتغرزت جميعها في قلبه وانسابت دموعه كنار ساخنة تريد أن تحرق وتلتهم قلوب متحجرة متعجرفة, لمْ يكنْ يومًا ضعيفًا، أو جبان إنما أراد أن يكون إنسان، واحتكم للعقل وترك القانون يقتص ممن قتل أبيه لكنه خذله وحطمت حياته كما حطم زواج ضحى قلبه، كان يدرك أن زواجه من ضحى أمر مستحيل خاصة بعد قتل أبيه كان شيء في صدره لمْ يستطعْ التخلص منه حاول كثيرًا وطويلًا على قدر ما تألم أن ينتزع هذا الحب من قلبه لكن هيهات أن يفلح لمْ يستطعْ أن يزحزح مشاعره وأحاسيسه

فقد ضرب الحب بجذوره في ثنايا قلبه واتخذه مسكنًا راح يضع أصابعه في أذنيه لعله يمنع صوت الزغاريد والطبل والمزمار من اجتياز جدار صمته لتدخل عليه أمه ويحاول سريعًا أن يمسح دموعه لتقول:

- يابني هذه لا يحزن عليها أخت قاتل أبوك لا تستحق إلا الكره.

أخرج أصابعه من أذنيه، وقال متحاشيًا النظر إلى أمه.

- لست حزين عليها يا أمي، بل تذكرت أبي رحمه الله عليه.

جلست أمه إلى جانبه وسقطت دمعة من عيناها وقالت:

- الله يرحمه.

ربت حمدان عليها، وقال:

- لا تحزني يا أمي أبويا يعتبر شهيد.

مسحت دموعها، وقالت:

- لا تريدني أن أحزن يا حمدان.

- نعم يا أمي

- إذن لا بد وأن تأخذ ثأره.

نظر حمدان في الأرض، وصمت لتكمل أمه:

- هذا هو الشيء الوحيد الذي يبرد ناري ويريح قلبي.

- لكن. . .

- ثأر أبوك وإلا لن تكون لك أية قيمة في البلد.

****

وكأن الشيخ عمران هرم فجأة بعد أن كانت مظاهر القوة والهيبة تبدو واضحة جلية عليه حين يمر على أي تجمع في خطواته الواسعة في شموخ وعظمة يجبرهم على الاعتدال في جلستهم, لمْ يبرحْ أن يتخطى الضرر بعد هروب ابنته، ومدى العار الذي لحق به حتَّى اصطدم بجبل لمْ يكنْ ليخطر له على بال حين قتل اِبنه المدلل زينة الشباب قضى على ما تبقى لديه من قوة وتماسك حتَّى إنَّك عندما تتحدث معه سرعان ما تلاحظ تلك الرعشة الجلية في أطرافه كذلك بدا وكأن عضلات وجهه انقبضت وضمرت فأضقت على ملامحه علامات العجز والكهولة حتَّى خطواته بدت بطيئة، وقد أضحى الصمت جليسًا له أيامًا وليالي, يجلس على الدكة في المندرة طيلة النهار شاردًا محدقًا في الأرض فاقد للتركيز، لمْ يعدْ شيء يعنيه فقد لذة الحياة وجميع اهتماماته، لمْ يعدْ يتحدث بلغة المال كما كان يفعل, لمْ يعدْ يشغله إلا شيئان لا ثالث لهما أين ذهبت ابنته سؤال لطالما ألح عليه حتَّى يكاد يجن هل هربت مع أحد؟! هل قتلها عليٌّ؟! هل قتلها أحد بغية سرقتها؟! خاصة وأنَّها كانت تتزين بالكثير من المشغولات الذهبية الثمينة أمَّا السؤال الثاني من قتل ابنه؟ ولماذا قتل، وكيف يأخذ ثأره؟ من أحد لا يعرف له مكان, حتَّى بدت تنفرج أسارير المصائب رويدًا رويدًا حينما قالت له زوجته أن فايزة تحدثت معها في التليفون وبعد أن عرف الرقم الذي اتصلت منه كان عليه أن يعرف أين

يتواجد ذلك الرقم؟ ولمْ يبرحْ أن يمسك بالورقة التي فيها الرقم حتَّى دخل عليهم هريدي وقال له إنَّه علم المكان الذي يختبئ فيه حنفي قاتل ابنه حينها فقط شعر بأن الجبل الجاثم على صدره بدا يتزحزح قليلًا ليأخذ نفس عميق غاب عنه كثيرًا.
كانت الحاجة نجية تغط في نوم عميق عندما أحست بيد تزغد فيها تحاول إيقاظها وتسمع صوت ينادي عليها:
- نجية. . . نجية.
راحت الحاجة نجية تتقلب وتهز في رأسها لتسمع صوت الشيخ عمران يردد اسمها:
- نجية استيقظي يا امرأة.
فركت عيناها ثمَّ فتحت لترى أمامها كف بشرية ملطخة بالدماء تنفزع نجية ثمَّ تضرب على صدرها وتصرخ!
- يا لهوى. . .
يضحك عمران لأول منذ فترة ليست بالقصيرة لتكمل الحاجه نجية في فزع:
- ما هذا يا عمران؟
يهز عمران رأسه، ويأخذ نفس عميق ويقول:
-هذة اليد التي قتلت كمال يا نجية!

****

٩

كل ما حدث لضاحي خلال الفترة الماضية كان يدفع به دفعًا نحو مصير محتوم رسم جميع تفاصيله في سذاجة لمْ تكنْ لتسلم منها حياة شبه مستقرة مع زوجة طيبة مسكينة -رضيت بالمر لكن المر لم يرضى بها-.

فقد تحويشة العمر التي كان يجمع فيها بالجنية حارمًا نفسه من أدنى ضروريات الحياة يفتح عيناه على الجبنة القديمة ويغمضها على -المش أبودود- ونادرًا ما يبر نفسه بنصف كيلو لحم، أو يذبح طير من الذي يقتنيه ليحزن عليه حتَّى ميعاد الأكلة التالية بل أنَّه يعتني بهم وكأنَّهم أولاده اضطر بعد أن سرق الاقتراض من عدلي حتَّى يوفي بالتزاماته، وليته ما فعل سرعان ما مرت الأيام وجاء وقت السداد، وطالبه عدلي بضعف ما اقترضه وراح يؤجل السداد ظن منه أنَّه يستطيع التملص أو على أمل أن يعثر على كنز لم يكن له وجود إلَّا في أحلامه وخياله ولم يلبث أن خاب ظنه سريعًا، وظل ينوح أيامًا كالنساء ينعي حظه وعقلًا لمْ يكتملْ نضجه.

في الكروم وتحت ظل نخلة يجلس ضاحي بائس حزين في حالة تأهب يستعيد حياته، وما آلت إليه من ضياع وتشرد كانت اللحظات تمر عليه، وقد غلبه التعجل وأنفاسه تتلاحق وقلبه يكاد يحترق كالسجائر التي يشعلها وسرعان ما يطفئها في توتر حتَّى لاح له من بعيد عدلي الذي يمتطي حماره ويمسك في يديه شمسية أخذ ضاحي يتحسس خنجره الذي يضعه في جيب السديرى وما أن اقترب منه عدلي حتَّى رمى السيجارة وأخرج الخنجر وراح يركض خلفه وينادي:

- حاج عدلي. . . حاج عدلي.

أخذ عدلي يهز رجليه ليوقف الحمار ثمَّ نظر خلفه قائلًا:

- ماذا تريد ياد؟

أخفى ضاحي الخنجر في سيالة الجلباب، وقال:

- أريدك في شيء هام يا حاج.

عدلي في فقدان صبر وحدة!

- خلص أنا لست فاض لك. . .

قبل أن يكمل كان ضاحي قد أخرج الخنجر وراح يسدد له الطعنات!

****

-عم عدلي اِتقتل يا أبويا. . .

خرج عبد الفضيل يركض كالمجنون حاف القدمين متجها ناحية

الكروم كانت المسافة بين داره والمكان الذي تسجى فيه جثة عدلي ليست بالطويلة لكنَّها مرت عليه وكأنَّها ليست لها نهاية, لمْ يحطْ على عبد الفضيل وعائلته أبدًا من قبل بل لمْ يجرؤْ أحد أو أية عائلة أخرى من فعل ذلك إنَّها المرة الأولى التي تترنح فيها كبريائهم.

حول جثة عدلي تجمهر معظم أهالي النجع وعائلات الهوارة ما بين الشماتة والحزن الغضب والفرح تباينت المشاعر لكن الجميع اِتفق على الرغبة في الانتقام وتأديب عائلة سالم وإذلالها بدا عبد الفضيل غير مصدق ما حدث الصدمة، والغضب شلا تفكيره وحطما أعصابه ظل ينظر إلى الجثة وكأنَّه مسحور حتَّى أفاق على صوت عسران الذي أتى مسرعًا يدك بقدميه على الأرض في غل صائحًا في حدة كديك فقد فراخه.

- والله ليدفعوا الثمن غالي الواطين ولاد الكلب!

حمل عسران جثة عمه عدلي بين يديه، وراح يمشي وخلفه أبيه الذي لا يزال في حاله ذهول وصدمة لا يبدى أية مشاعر حب أو أخوة تجاه عدلي يومًا لكنَّه لا ينكر أبدًا أنَّه كان بمثابة منقذ وبنك دائمًا ما يمده بالمال أينما شاء كذلك فإنَّه للحق يعتبر بمثابة سند لا يمكن الاستغناء عنه حتَّى وإن لمْ يمنحه ذات يوم أي إحساس بالمسئولية أو بالقيمة التي يرسمها له في خياله.

وارتج النجع وذئرت جميع عائلات الهوارة كذئير أسود تدافع

عن عرينها، وأخذت الأصوات تعلو والقلوب اشتعلت كجمرة نار وتنحى العقل والتدبير وخرج المارد من -القم قم- بعد أن دعك ضاحي فانوس الثأر.
كان رسلان في المركز حينما سمع خبر قتل أخيه وما أن خطت أرجله أرض النجع حتَّى انطلق إلى داره باحث عن البندقية الأليَّة وقد أمسك بها وخرج يقابل جثة أخيه بإطلاق الأعيرة النارية في الهواء في حالة هياج شديد وصياح قائلًا في حدة:
- سيدفعون الثمن غالي.

****

فعلها ضاحي وسجن على ذمة القضية بعد أن قبض عليه، وترك أفراد العائلة في هم لا يضاهيه شيء صار رجال العائلة يختبئون في منازلهم من المغرب مذعورين كالفأران يعيشون على أعصابهم يفزعون من أقل صوت يحدث حتَّى وإن كان طرق على الباب وصدق ما توقعه حمدان، وما كان يقوله ظاهريًّا أخذت عائلة السوالم ثأرها من عائلة عبد الفضيل لكن هل ارتاحت الآن؟ على العكس تمامًا فقد صارت لياليهم أحلك من ظلمة ليلة معتمة، ومع ذلك نستطيع أن نقول أن بعضهم كانت تعتريه فرحة وسعادة، ولما لا وقد أخذوا ثأرهم من عائلة عبد الفضيل التي لمْ يجرؤْ أحد من العائلات الأخرى من الإقدام على عدائها كذلك توجد واحدة رغم ما فيها من خوف وقلق اعترتها سعادة غامرة حينما قال لها

حمدان عن الخبر ابتسمت الحاجة وهيبة وضربت على صدرها وقالت: -الآن أثلجت صدري وانطفأت نار قلبي الآن يحق لي أن أحزن على فراق من كان تاجًا على رأسي- ما لبثت أن قالت هذة الجملة حتَّى أخذت حمدان بالحضن، ودخلت في نوبة بكاء ونويح وكأن خبر وفاة الحاج عبد الكريم قد سمعته للتو.

كان البكاء تنفيسًا عن حزن، وألم مكبوت عندما قتل زوجها لا توجد كلمات تستطيع أن تصف حالة الغصة والألم التي شعرت بهما الحاجة لكنَّها كبتت ذلك في قلبها حتَّى يأتي اليوم ويأخذون ثأره.

أخذ حمدان يربت على ضهر أمه، ويقول:

- الله يرحمه يا أمي.

في صوت ضعيف:

- الحمد لله يا بني.

ابتسم حمدان لأول مرة منذ قتل أبيه لكن غصة في حلقه لا زالت تقف حائل بينه، وبين أي فرحة حتَّى وإن كانت وقتيه حينما راح سؤال يتردد في داخله -ماذا بعد؟- ليقول وهو يهز رأسه:

- ربنا يستر.

جلس حمدان على الدكة ثمَّ وضع يده على رأسه لتقول أمه بعد أن جلست على الأرض ثمَّ نظرت إليه وقالت:

- ما بك يا بني؟!

نظر إليها وهزَّ رأسه، ولمْ يجِبْ لتكمل أمه:
- يا بني اترك كل شيء على الله ربنا يسيرها على خير إن شاء الله.
في صوت خافت:
- يا أمى أريد أن أحمل كفني وأدخل على عائلة عبد الفضيل.
في فزع وقد همّت واقفة!
- لماذا يا بني تريد أن تفضحنا.
في صوت حاد لأول مرة منفعلًا على أمه:
- أريد أن احقن الدماء وأقفل باب جهنم اللي اِتفتح يا أمي.
- يا بني هم من قتلوا أبوك، وليس أنت.
بعد أن يجلس يقول في صوت خافت:
- آسف يا أمي لاتزعلي مني!
- أنا لا أزعل منك أبدًا يا بني.
- لكن يا أمي لا بد من فعل ما قلته لك حتَّى نضع حد لهذا من أول ما سمعنا خبر قتل عدلي، وكل أفراد العائلة في حالة رعب وفزع والكل ملازم لداره يخاف أن يخرج إذن ما العمل غير إني أدخل عليهم بكفني ونحقن الدماء.
هزت رأسها في أسى ثمَّ نظرت في الأرض، وقالت:
- ما فيه الخير يقدمه ربنا إن شاء الله.

****

ارتاح قلب الشيخ عمران قليلًا بعد أن اقتص من قاتل ابنه وظهر

ذلك جليًّا واضحًا عليه حيث صارت ملامحه أكثر هدوء كذلك فقد عاد إليه صوت الحاد الجاهوري وكأنَّه أعاد إصلاح أوتاره الصوتيَّة بعد العطب الذي أصابها كذلك فإنَّه تصالح مع معشوقته الشيشة حيث صارت أحجار الحشيش لا تنقطع من أمامه.

بينما كان يجلس على الدكة في المندرة يمسك في يده اللي ويسحب نفس الشيشة المنغمس في الحشيش سمع صوت مألوف ينادي عليه في الخارج:

- شيخ عمران. . . شيخ عمران.

اعتدل في جلسته ثمَّ قال:

- اتفضل.

كان الصوت لعبد النعيم -البياض- الذى دخل ثمَّ صافح الشيخ عمران، وجلس ثمَّ صمت ليقول الشيخ عمران الذي بدت عليه الدهشة!

- نورت يا عبد النعيم.

- النور نورك يا شيخ.

في صوت حاد:

- يا ولد جهز الفطور.

- الله يبارك فيك يا شيخ فطرت منذ قليل.

ساد الصمت لحظات ليعطي الشيخ عمران لي الشيشة لعبد النعيم الذي يأخذ نفس ثمَّ يقول في تردد:

- أريد أن أقول لك على شيء يا شيخ.
- خير إن شاء الله.
في الأمس كنت في المحافظة، ورأيت ابنتك فايزة.
في توتر وقد ومضت عيناه!
- ماذا تقول يا عبد النعيم؟!
كما سمعت يا شيخ.
- أنت متأكد؟
- متأكد.
- رأيتها أين بالضبط؟
- في شارع البحر ودخلت عمارة ٢٦.
- تمام في طلب يا عبد النعيم.
- تأمر يا شيخ.
- هذا الكلام لا يعرف به أحد نهائي.
- تأكد أنَّه لن يعرف أحد.

****

أضحت فايزة بائعة هوى منحكة تجيد بيع جسدها لمن يريد وتتأود على قدر ما يدفع لها وأطلقت العنان لعهر نفسها, وكما ينهل باحثي المتعة عنها في جسدها بقدر ما كانت تنهل من جيوبهم لكن أبدًا لن تهنئ رغم تحسن أحوالها المادية كثيرًا إلَّا أنَّها صارت مسخ يعج بألوان كثيرة متزين من الخارج في حين أن

داخله تفحم من الاحتراق يوميًّا من الحزن والندم.
كان هريدي يراقب العمارة التي تقطن فيها فايزة حتَّى تأكد تمامًا من وجودها، ليبلغ أبيه الذي أتى مسرعًا ومعه أخيه عبد الصبور في خطوات سريعة متحفزة اتخذوا طريقهم إلى العمارة، وقبل أن يدخلون كان الحارس الذي يقف على اعتاب المدخل يقول في لهجة حادة:

- إلى أين؟

في حسم وحدة قال هريدى:

- كن في حالك يا ريس نحن أقارب فايزة.

في لهجة يملاءها الخنوع:

- ممكن تجلسوا هنا حتَّى أخبرها.

الشيخ عمران في صرامة:

- يا حاج أنا أبوها وهذا عمها هي تسكن في أى دور؟

- الدور الرابع شقة ٢٠.

لمْ يكدْ الحارس يكمل الجملة حتَّى صعدوا منطلقين إلى أعلى كذلك انطلق الحارس خارج العمارة وهو يتم تم...

- لا بد وأن أخبر البوليس يبدو عليهم الشر!

كلما مرت الأيَّام تكاثرت عليها الهموم وأثقلت قلبها بحزن لمْ تعدْ تستطيع تحمله كانت تقضي ليالي طويلة تتقلب خائفة من مستقبل مجهول يلوح أمامها نظرات أبيها الشرسة المرعبة

وفظاظة أخيها دائمًا أمام عيناها تنتظر أن يطرق عليها الباب في كل دقيقة تمر وكثيرًا ما كانت تصحو من النوم مفزوعة وقد ظنت إنَّهم كسرًا الباب، ودخلا عليها.

كانت فايزة تجلس في البانيو تستمتع بالماء الساخن اللذيذ حتَّى تستعيد نشاط جسد سلط عليها, كانت آثار أصابع من كان يضاجعها بارزة عليها كالختم.

كانت في حالة تأهب كمحارب ينتظر هجوم عدوه في أي وقت لذلك بمجرد ما وطئت كف هريدي على الباب حتَّى هبَّت واقفة في حالة خوف وذعر لتقول وهي ترتعش.

- من؟!

ازدادت حدة الطرق في قوة وعنف على غير اعتياد هنا أدركت إنَّه حان وقت الحساب وأيقنت أن من بالخارج لا يمكن إلَّا أن يكون أبيها حاولت ارتداء ملابسها وراحت تصرخ في هستريا.

- من. . . من. . . الحقوني. . . اااه.

لتسمع صوت أبيها هنا ارتجف قلبها، وسابت أرجلها.

- افتحي يا فاجرة!

كان الصوت عالي بما فيه الكفاية ليسمع الجيران الذين خرجوا من الشقق وراحوا يتهامسون قائلين:

- من الواضح إنَّهم أهلها.

لتقول أحداهم في صوت بدا عالي حتَّى تسمعهم.

- أحسن يأخذوها كانت شبها العمارة رجاله طالعين داخلين.
ليغتاظ هريدي، ويقول في صوت عالي وهو ينظر إلى الجيران، وقد أخرج الطبنجة!
- كل منكم في حالة لا أريد أن أسمع صوت أحد.
الشيخ عمران في حدة:
- اكسر الباب.
راح هريدي يدفع الباب بكتفه في قوة حتَّى فتح في عنف ليدخلوا هاجمين وقد أخذوا يبحثوا عنها في كل أركان الشقة ليجدوها ملقاة في البانيو حيث راحت في غيبوبة من شدة الخوف ليقول عبد الصبور بعد أن رأى الشيخ عمران يركلها في عنف، وغل.
- كفى يا عمران ليس هنا عندما نأخذها افعل بها ما شئت. . .
ثمَّ نظر إلى هريدي وأكمل. . . أحضر شيء أسترها به يا هريدي.
راح هريدي ينظر يمينًا ويسارًا باحثًا عن شيء لتقع عيناه على ستارة انتزعها في قوة ثمَّ أمسك جسد فايزة وحاول عمه عبد الصبور مساعدته حتَّى واروا جسدها في الستارة ثمَّ رفعها هريدى حاملًا إياها على كتفه وقبل أن يخطوا إلى الأمام كانت الشرطة وصلت داخل الشقة ليقول الضابط ملوحًا بالطبنجة في لهجة يشوبها التهديد في حدة:
- كل واحد يقف مكانه والذي يتحرك سوف أطلق عليه النار.
ما لبث أن قال الضابط هذة الجملة حتَّى وقف الجميع في سكون

وسرعان ما نظر إليهم، ودقق في ملامحهم ليتعرف على الشيخ عمران، والنائب عبد الصبور الذى قال:

- خير يا حضرة الضابط؟

أعاد الضابط الطبنجة إلى مكانها، وقال في هدوء:

- آسف يا سيادة النائب لمْ أكنْ أعرف أنَّه أنت ومعك الشيخ عمران لكن ما الذي تفعلانه هنا وما يحدث بالضبط؟

اقترب عبد الصبور من الضابط ثمَّ أخذه على جانب وراحا يتحدثا في صوت منخفض أثناء ذلك كان لا يزال هريدي ممسكًا بفايزة التي بدأت تفوق وتستعيد وعيها وسرعان ما راحت تصرخ بأعلى صوتها كان العساكر ينظرون في دهشة واستغراب اتجه الضابط إليها ثمَّ قال:

- لا تخافي.

الشيخ عمران:

- يا حضره الضابط هذة بنتي ولابد من أخذها إلى النجع.

وهو يهز رأسه في أسف.

- أسف يا شيخ عمران لا بد من عمل محضر في القسم.

****

واجتمعت العمائم على الشر راحوا يدبرون أمرًا بليل سيطرة رغبة واحدة عليهم الانتقام، وتأديب من تجرؤا على أسيادهم وأرادوا أن تتساوا الرؤوس اجتمع أكابر عائلة عبد الفضيل في داره

وكلًا أخذ يدلو بدلوه في كيفية الثأر لعدلي، واستعانوا بثابت الذي يقطن في القاهرة منذ سنوات بما لديه من سنوات عمر مديدة وخبرة، وتعصب طاغًا عوامل أهلته ليكون أهم محفز لهم وحقًا عندما تنظر إلى وجهه الأشعث، وشاربه الكث، وكرشه المتدلي وظهره المنحني، وتحركه في صعوبة بالغة مرتكزًا على عصا غليظة تندهش من كمية الشر، والسواد التي تملأ قلب هذا الرجل الهرم لكن عندما تعرف إنَّه شاخ على أكل الحرام، والتجارة في كل ما هو ممنوع من تجارة سلاح ومخدرات وسلع تموينية حينها فقط لا تندهش.

في المندرة الخاصة بدار عبد الفضيل يجلس ثابت ورسلان وعسران والدميري، وعبد الفضيل في غضب وتوتر يقول رسلان:

- أولاد الكلب لا بد وأن يدفعوا الثمن.

أخذ عبد الفضيل نفس شيشة ثمَّ قال في هدوء:

- هدي نفسك كل شيء وله آوان.

عسران:

- الواطين يريدون أن يضعوا رؤوسهم برؤوس أسيادهم.

تنحنح ثابت ثمَّ وضع أصبعه على لي الشيشه بعد أن تناوله من عسران ثمَّ أخذ نفس، وداعب طرف شاربه وقال بعد أن اضطجع:

-أنتم من جعلتم لهم قيمة بعد أن كانوا لا شيء.

عبد الفضيل:

- يا ثابت أموالهم كثيرة خاصة عائلة -المكحوت عبدالكريم-.
ثابت في غضب وحدة:
- ومن جعل لديهم كل هذه الأموال ألستم أنتم ممن تشترون منهم عمومًا هذا الكلام أصبح لا يقدم ولا يؤخر لا بد من تأديبهم.
عبد الفضيل:
- لا بد من قتل سالم من يحرض فيهم.
ثابت:
- لا سالم راجل كبير خردة موته مثل عدمه الثأر لا بد وأن يكون من أحسن رأس عندهم من حمدان.

****

١٠

آفة النجع (النميمة) عادة لا تنقطع خاصة بين النساء حيث أنَّها بالنسبة إليهن كالماء والهواء لا يمكن الاستغناء عنها، ويسعدنا كثيراً عندما يحدث شيء ينسجن حوله أحاديثهن صباحًا ومساءً حتَّى يخفت شيئًا فشيء، وسرعان ما يختلقن موضوع جديد ليكون حديث مجالسهن، وكان العثور على فايزة وجرها إلى النجع مادة جيدة وتربة خصبة لنميمة مبهجة وشماتة لا محدودة أثلجت صدروهن لما لا وهن كن في حالة غيرة دائمة من الحاجة نجية التي تتعجرف عليهن، وتلبس ثوب كبيرة النجع.

كانت فايزة قد سعت جاهدة أن تفر من قبضة أبيها عن طريق الاستغاثة بالشرطة ولمْ تفلحْ لكنَّها نجحت في أن تجعله يمضي داخل قسم الشرطة على تعهد بعدم التعرض لها وأن يعاملها معاملة جيدة وقد كان ذلك أمام المأمور الذي شدد مرارًا وتكرارًا على الشيخ عمران بعدم المساس بها، وإلا سوف يتعرض للمسائلة القانونية، وابتسم الشيخ عمران ابتسامة باهتة حينما قال له المأمور ذلك وقال ساخرًا:

- أنت تأمر يا بيه نحن سوف نحملها على رؤوسنا.
أمَّا فايزة فقد ظنت أنَّها ستلاقي معاملة سيئة من ضرب وإهانة، وأن الجميع سوف يحط عليها، وأنهم سوف يشقونها في الخدمة طيلة اليوم في الدار الواسعة لكن حدث العكس تمامًا كانت جميع نساء الدار في خدمتها.
مجرد أن تقترب من شيء كي تفعله تكون إحداهن قد سبقتها إليه قائلة لها في لهجة يشوبها غيظ مكتوم -ارتاحي أنت- حتَّى عندما كانت تريد أن تحضر شيء تأكله تقوم أمها، أو أختها بإحضار الأكل محدثة نفسها في غل -كلي بالسم الهاري يا فاجرة-.
الحقيقة أن هذه كانت تعليمات، وأوامر الشيخ عمران الصارمة بأنَّها لا تفعل أي شيء في الدار خاصة الطعام كان لا يثق فيها، وكان يقول للحاجة نجية -الفاجرة ممكن تضع لنا السم في الطعام، أو تفعل ما يؤذينا- كذلك فإنَّه شدد عليهم في مراقبتها أينما تواجدت حتَّى وإن دخلت الحمام فلا بد من وجود واحدة منهن تقف لها على عتبة الباب في الخارج كانت مراقبة على مدار ٢٤ ساعة لا تغيب عن أعينهن ولذلك تقاسمت النساء نوبات الحراسة الحاجة نجيبة كانت تحرسها من آذان الفجر حتَّى آذان الظهر، وجملات زوجة أبيها من الظهر حتَّى آذان المغرب، وبدرية زوجة هريدي من المغرب حتَّى منتصف الليل، وصفية أختها من منتصف الليل حتَّى آذان الفجر حيث لا بد وأن تتواجد إحداهن

إلى جانبها ولا يتركوها أبدًا بمفردها نهائيًّا؛ وكان ذلك لسبب هام جدًا كي لا تغافلهم وتفر حينها ستكون فضيحة لا يمكن علاجها كذلك فإنهم كانوا لايتحدثون أمامها في أي شيء دائمًا ما يكون الحديث بعيدًا عن أذنها أمَّا فايزة كانت تدرك في داخلها أن شيء ما يدبر لها وأنَّها لا بد وأن تعاقب وصارت أكثر حزنًا وألمًا خاصة عندما تريد أن تتحدث مع إحداهن، وتصدها سريعًا ثمَّ تدير وجهها عنها، وتقول لها في غيظ وحدة -اكتمي دماغنا وجعانا-، ومرت الأيام بطيئة وفاض الكيل بالجميع، وضاقت صدور النساء اللاتي تعبن كثيرًا، وصارت فايزة حمل ثقيل يردن أن يتخلصن منه في أسرع وقت كذلك فإنَّها أصبحت تتمنى الموت على أن تحيا منبوذة من أهلها حتَّى جاء اليوم الذي قالت فيه الحاجة نجية للشيخ عمران: -متى تخلصنا من الهم الذي نحن فيه يا شيخ تعبنا-. لينظر لها ويقول وهو يهز رأسه - كل شيء وله أوان يا نجية قريبًا ستزول الغمة-.

****

كان حمدان هدف لكل أفراد عائلة عبد الفضيل أنَّه زينه شباب عائلة السوالم، وقتله ستكون بمثابة ضربة قاضية لأفراد تلك العائلة الذين تطاولوا على أسيادهم وظنوا أنَّهم من الممكن أن ينفذوا بأموالهم من ثوب الأعراف والتقاليد حتَّى وإن بلغوا من المال لا يحصى فلن يبرحوا أبدًا المكانة التي وضعم فيها والكلمة

التي التصقت بهم بغراء جف منذ عقود طويلة، وغير قابل للنزع (الواطين) كان حمدان على يقين تام بما تمَّ تدبيره والخطة التي وضعت لحز رقبته, كان كل من يحيط به يحزره، وقد نصحه عمه كثيراً بأن يرحل ويترك النجع حتَّى أمه التي لطالما ألحت عليه أن يقتص ويأخذ ثأر أبيه بعد قتل عدلي فرحت واعتبرت أنَّه القصاص التي كانت تنتظره لكن سرعان ما أفاقت من نشوة فرحتها وغلبتها غريزة الأمومة وراح قلبها يرتجف كل ليلة خوفًا على فلذة كبدها إنَّها تعلم مثل غيرها أن حمدان هو المطلوب، وأن الثأر سيف سلط على رقبته وترجته أن ينفذ كلام عمه ويغادر قائلًا: -لن أرحل يا أمي لن أجبن هل أدركتي الآن أن الثأر جحيم سوف يلتهم الجميع من الممكن كنت أرحل فيما مضى لكن الآن لا آسف لن أغادر مهما حدث-.

قلبها يكاد يقفز من شدة الخفقان عندما يبرح عتبة دارهم صارت تموت في اليوم مئة مرة تترقب خبر قتله تدعو الله أن يكون يومها قبل يومه ليس من عاداته أن يحمل السلاح عند خروجه من الدار، ولما يحمله وهو كان محب للجميع يمنى نفسه بالسلام الذي ضن عليه لمْ يتركوا له الخيار منذ قتل أبيه لمْ يجدْ مفر من أن يضع الطبنجة بين طيات ملابسه ليس للاعتداء إنما دفاعًا عن نفسه وردعًا لمن يتربص به.

كان يتكأ على سريره ينظر إلى صورة أبيه كما اعتاد يحدثه ويشكو له كان بالنسبة إليه ليس أب إنَّما معلم وناصح يجده عندما تختلج نفسه حيرة راح يدقق النظر إلى الصورة، والدموع تتساقط من عينيه ويحدث نفسه -إن كان لا مفر من الموت فلن أموت جبان-.

بعد أن مل من مكوثه الدائم داخل الدار خرج قائلًا لأمه التي أخذت تتوسل إليه بعدم الخروج -كل شيء مقدر ومكتوب والمكتوب على الجبين لا بد وأن تراه العين لا تخافي يا أمي لا أحد يموت ناقص عمر-. راح حمدان يسير على السكة الزراعية كما كان يفعل ينعم بالهواء النقي والنظر إلى الزرع واللون الأخضر الذي ترتاح له عيناه تاركًا التفكير في الثأر قليلًا حتَّى سمع طلقات رصاص أتيه من بين أعواد الذرة سريعًا أدرك ما يحدث ليقفز في لمح البصر أسفل الجسر لينجو بأعجوبه من طلقة أصابة ذراعه الأيسر أخرج الطبنجة، وشد الأجزاء في صعوبة وأطلق النار وقد لاح له عسران وأبو زيد اللذان يمسكان بندقيتان اليتان، وحدث تبادل لإطلاق النار وما هي إلا لحظات حتَّى سمع صوت يصرخ في شدة -آه يا كتفي- ركض حمدان من تحت الجسر إلى خارج النجع، ولم يداخله شك بأنَّه قتل أحدهما.

لامست الطلقة أعلى كتف عسران الأيمن الذي راح يصرخ من شدة الألم كان الفار وأبو زيد في صحبته اللذان أخدا يطلقان النار

على مكان حمدان الذي لاذ بالفرار ليقول الفار في غل -هرب الجبان ابن المكحوت- استند عسران على الفار وأبو زيد، وقد ربطا كتفه بالشال وساروا في الحاجر حتَّى لمح أبو زيد أميرعبد الكريم ليقول:

- الواد أمير أخوه هناك نقتله طالما الجبان هرب ليقول الفار في تردد:

- لكن هذا طفل يا أبو زيد.

ليقول عسران وهو لا يزال يتألم:

- ماذا تقول؟ طفل؟! أو ليس أخوه الذي كاد أن يقتلني، وهرب أحضره اِبن الكلب هذا يا أبو زيد.

ركض أبو زيد في اتجاه أمير الذي كان عائد من المدرسة حامل الحقيبة على ظهره وبمجرد أن رأى أبو زيد دب الذعر في وجهه وارتعب وقبل أن يركض هربًا كان أبو زيد انقض عليه ماسكًا إيَّاه من قفاه في قوة.

ليقول أمير في ذعر:

- ماذا تريد مني أتركني أنا لمْ أفعلْ لك شيء.

أمسك أ بوزيد بأمير وجره إلى عسران، والفار ليصفعه عسران على وجهه في قوة حتَّى سال الدم من فمه، وصرخ الطفل من اللطمة التي أظلمت الرؤية تمامًا أمامه، وجعلته يترنح كالدجاجة المذبوحة ثمَّ ارتمى على الأرض وأطلق صرخة مدعوية!

- ااااه!

أمسك عسران وأبو زيد بأمير ورفعوه من على الأرض ليقول عسران في حدة:

- أخوك الجبان ضربني، وهرب سوف أجعله يندم.

ليقول أمير بعد أن رأى الأسلحة تلوح في وجهه وتصوب نحو صدره الصغير.

- سلمت أمرى إلى الله.

أغمض الصغير عيناه، وانطلقت رصاصت الغدر تخترق كل قطعة في جسده البريء ليرتمي على الأرض، ونظر إلى السماء ثمَّ ابتسم، وأغلق عيناه.

****

الثأر هذا القدر المكتوب على الجبين كنت أحيا في سلام حتَّى تحكمت الأعراف، وغلب التعصب، وانتصر الجهل، ورقص الشيطان على جثث أبرياء لمْ يكنْ أبدًا خاطرًا على بالهم مصيرًا بالدم ارتوى. . . جئت إليك فاتحًا ذراعي فلمْ يرحموا استغاثتي ولا رجائي. . . أبدًا لن يتركوا لي الخيار. . . لا بد وأن أقتل وأن ارتعشت يداى لسوف أقطعها. . . إنِّي مثلهم نبت تلك الأرض التي أنّت من الإهمال والتطرف. . . أرض النسيان.

مكث حمدان غير بعيد من موطن لطالما حلم أن يقضي فيه طيلة عمره كان يجلس في كوخ صغير بُنِيَ من الخوص وقلبه يذرف دمًا

على أبيه، وعلى أخيه الصغير تمنى لو عادت الأيام، وفداه بروحه.
لمْ يكنْ يتطرق إلى ذهنه أن تصل غلظه القلوب، والجهل إلى قتل طفل صغير بدم بارد راح يتم تم بكلمات الحزن والحسرة، وألم يمزق إحشائه كانت الدموع تملأ عيناه لا يكاد يخيفيها حتَّى تغرغر من جديد تذكره حينما كان يطير فرحًا عندما يأتي إليه بالحلاوة الطحينية من السوق عندها يعانقه، ويقول له في براءة الأطفال بحبك يا أخويا -أد الدنيا دي كلها-! أحيانًا كثيرة كان يلهو معه بالكرة كان أمير ليس أخ صغير فحسب، إنَّما السند الذي ينتظر نموه كان يسقيه حب وحنان ونصح حتَّى يصبح رجلًا له السند والعزوة.
استفاق حمدان على صوت كهل انحنئت ظهره وتكسرت أسنانه وقد أمسك بكوب شاي أعطاها لحمدان ثمَّ جلس ليقول حمدان:
- شكرًا يا عم عبد الباسط ربنا يبارك فيك!
هزَّ الكهل رأسه وقال:
- أنت وأبوك لكم معزة كبيرة عندي يا بني.
- هذا العشم يا عم عبد الباسط.
أخذ حمدان رشفة شاي، وهز رأسه في أسى وأدمعت عيناه ليربت الكهل عليه، ويقول له في صوت حاني:
- ارمي حمولك على الله يا بني.
مسح حمدان عيناه، وقال وهو يهز رأسه:

- ونعم بالله لا أعلم ماذا أفعل يا عم عبد الباسط؟

أخذ الكهل رشفة شاي ثمَّ قال:

- ربنا اسمه العدل يا بني الظلم من نفوس مالت للهوى وارتمت في حضن الشيطان لا تيأس من روح الله.

****

كان يتربص به صار يعد عليه خطواته, كثرة الظلم تدمي القلب وتنحي العقل، الغل والحقد يصبحان متنفسًا والانتقام يكون هدفًا وقبلة، كان من الممكن أن يتسامح في أي شيء إلَّا أن يستحلوا دم طفل لم يعرف من الدنيا سوى الركض واللهو, بأي ذنب قتل وسالت دمائه على بياض صفحات كراسة، وبعثرت كتبه وأوراقه كما بعثرت حياة عائلته أمسك حمدان بالشنطة المدرسية الخاصة بأمير وراح يبكي في حرقة ويأنب في نفسه على فراره حينما أطلق عليه النار، وترك لهم الفرصة بأن يقتلوا أخيه.

أصبح أبو زيد مبتغاه والقصاص منه أضحى دينًا لا بد وأن يأديه, فقد قتل أخيه وسرق حبيبته، وفي أوآخر الليل يسير أبو زيد عائدًا من قضاء ليلة حمراء مع بسيمة مصدر الراحة لكل تعبان في النجع يدندن ويمشي في خطوات متعثرة أثر المجهود الذي بذله كي يشبع بسيمة التي كالبئر لا تمتلئ أبدًا، وما أن رأه حمدان حتَّى شد الاجزاء قائلًا في غل:

- لا بد وأن تموت يا من قتلت أخي.

أطلق حمدان النار لتستقر الرصاصة في رأس أبو زيد وتسكت أنفاسه إلى الأبد.

****

نما حب الدنيا، وتغلغل داخلها رأت نفسها تستحق منها الكثير سبحت في عالم المتعة رأت كل شيء من خلف نافذة شهواتها خضخضت فيها غرائزها حتَّى مزجت داخلها مشاعر العهر بخيال مريض دكت من أول مقتحم, داعبتها أحلامها كما كانت تداعب جسدها فرحة بما لديها عندما ترى الأعين تتلهف لنظرة رضا وكلمات الغزل تطاردها أحبت نفسها كثيرًا، واغترت كثيرًا, تركت من أحبها بصدق الذي كاد أن يأتي إليها -بلبن العصفور- ولمْ ينلْ أبدًا كلمة شكر، أو حب صادقة سحقت كل ركن من أركان حياتها قبل أن تهدم بيت عانى في تأسيسه رجل كان خطاؤه أنَّه ركض خلف عضوه الذكري ولمْ يعر أي اهتمام لمن أراد حقًا نصيحته لمْ تستطِعْ فايزة أن تتبع طريق رسمته عائلتها بني على العفة، والوقار، والمبالغة في الاحتشام كان هذا لا يلائم أحلامها التي صارت تؤرقها حتَّى في يقظتها إنَّها جميلة وذكية ترى أن جسدها وذكاؤها حقًا قادرين على أن يمنحاها ما تصبوا إليه من متعة.

بعد مضى فترة في بيت أبيها دون أن يحدث لها شيء يؤذيها أو حتَّى تسمع ما يوجعها بدأت تستعيد لمحات من الماضي، وشيئًا فشيء صارت تحيا كما كانت قبل أن تفر من براثن أرض

التصقت بكل من نبتوا فيها جميع من حولها كان يبتسم غصبًا حتَّى يشعرونها بالأمان لكن في داخلهم تكاد أذنهم تصم عندما يسمعون ضحكاتها أعينهم صارت لا ترى إلا قبح روحها، وألسنتهم تريد أن تصرخ بكل غل على من أحلت نفسها للشيطان.
كان الشيخ عمران يقسم حياته على زوجتيه كل واحدة منهن ليله لكنَّه لا تهدأ له نفس، ويطيب له خاطر إلَّا بين أحضان زوجته الأولى الحاجة نجية إنَّها الصدر الحنون الذي يحتوي كل كمد، وعطب داخله لمْ تشعرْ يومًا بنقص حتَّى وأن كان باديًا دائمًا بالنسبة إليها الرجل الكامل حتَّى وأن ضمرت فحولته حجرتها تشهد على صدق مشاعرها تشتم أنفاسه في كل قطعة أثاث داخلها لمْ تتغيرْ أبدًا تعبيرات وجهها حتَّى بعد أن تزوج بأخرى، بل حرصت أن لا تشعره بغير ما يرضيه دائمًا ما كانت تنتظره في ليلتها كأنَّها عروس تنتظر عريسها الذي سوف تمنحه تاج عفتها رغم أنَّها كثيرًا كانت عندما تنفرد بنفسها وتحدثها وهي تنظر إلى صورته -لماذا يا عمران هل بخلت عليك بشيء أو لمْ تجده عندي حتَّى جعلك تذهب إلى غيري-، وللحق كان عمران يبادلها الحب إنَّها زوجته التي أحبها منذ أن كان فتيًا وهي السكن الذي لا يرتاح إلا فيه لكن لماذا تزوج عليها حينما نذكر ذلك لا بد، وأن نعرف إنَّه قد يكون لسببين الأول: أنَّه عُرف نشأ عليه حيث البيئة التي تحض على تعدد الزوجات حتَّى أن أباه كان متزوج من أربع

نساء، أمَّا السبب الثاني: أنَّه الثراء الذي ينعم به لطالما كان يحثه أصدقاؤه أن يتزوج ويطري على قلبه، ويمتع نفسه وإلَّا ما فائدة المال الذي يمتلكه كما كان يقال له؟!.

كان الشيخ عمران نائم إلى جوار الحاجة نجية محدقًا في السقف الوقت بدا متأخرًا لتكسر الحاجة نجية الصمت قائلة:

- المرارة اتفقعت يا شيخ ألم يحن الوقت؟

هز رأسه ثمَّ قال بعد أن أخذ نفس عميق.

- البعيد قرب يا نجية.

- الليلة.

- بعد ساعة المهم تكون نائمة.

- اتخمدت منذ قليل أنا تأكدت بنفسي.

-شرع الله لا بد وأن ينفذ.

-الجبل يبتلع عارها.

ساد الصمت مرة أخرى، وراح الشيخ عمران يفكر فيما آلت له الحياة أبدًا، لم يخطر على باله يومًا وهو له من الجاه، والسطوة، والمال مِمَّا يجعله نافذًا في كافة الأمور لمْ يتجبرْ لكنَّه كان صلدًا باديًا هيبة استعصت على الكثير مِمَّا كانوا يحسدونه ليل ونهار على تلك المكانة التي يحظى بها أنشأ أولاده على العزة والكرامة كان حاسمًا قاسيًا معهم دخوله إلى الدار كان كفيل بأن يبث الرعب في قلوبهم خوفًا لطالما تسّأل ما جانب التقصير الذي

اقترفه جعل من ابنته خاطية بفعلتها ذبحته بسكين تلمة كان يريد أن لا يعثر عليها حتَّى يتوارى هروبها خلف كذبة أن زوجها قتلها وأخفى جثتها لكن عندما عثر عليها صار أمر هروبها وعارها أمر علني للصغير قبل الكبير.

لا ينكر في قرارة نفسه أنَّه المسؤل الأول عن هروبها لما لا وهو كان يصب من حنانه في بئر تمردها ظفرت بالكثير من الجانب اللين في شخصيته، ونالت من التدليل والحب ما جار على حق إخوتها لطالما حملها على أكتافه حتَّى وصلت إلى سن الخامسة ولا ينسَ عندما كان يفتح لها ذرعيه، ويقول لها -حبًا حبًا يا فايزة- كانت قبلة من شفتيها الصغيرة وحضنها الطفولي تنسيه وضعه وهيبته، وكل شيء وقد واجه انتقادات عديدة من جميع من حوله بداية من زوجته لأمها الحاجة نجية مرورًا بالرجال في النجع الذين يندهشون من ذلك، ويقولون له أنَّها بنت ياعمران كفى تدليل وعندما تبكي ويرونه وقد انزعج يكملون يا راجل اِكسر للبنت ضلع يطلع لها أربع وعشرون نهاية بأخواتها الذين ضجروا من ذلك خاصه الذكور الذين كانوا يرون إنَّهم أولى بهذا التدليل من بنت.

كان الشيخ عمران لا يزال نائم على ظهره واضعًا كلتا يديه تحت رأسه لا يزال يفكر فيما جنت يداه حتَّى أنَّه لمْ يكنْ يشعر بالحاجة نجية التي تنام إلى جانبه وتنظر إليه، وتمرر يديها على

شعره وصدره ببطء وفي حنان لتسمع صوت طرق باب الغرفة، وهريدي يقول في صوت منخفض.

- الجماعة وصلوا يا أبويا.

انتبهت الحاجة نجية ثمَّ قامت بنصفها العلوي وقالت:

- من هؤلاء يا عمران؟

نهض عمران ثمَّ نزل من على السرير، وما إن أمسك بالجلباب حيث كان بالفانلة والسروال حتَّى قامت نجية وأخذتها منه ثمَّ ألبسته إيَّاها ثمَّ أحضرت العمةْ وأخذت تنظفها بيدها وأحضرت العصا وأعطته للشيخ عمران الذي نظر إليها ثمَّ هز رأسه وفتح الباب وخرج يدلف إلى المندرة ومجرد أن دخل حتَّى وقف الحضور الذين كانوا في انتظاره ليقول:

- يا مرحب.

- مرحب بيك يا عمران.

- اتفضلوا دقايق والأمانة تكون جاهزة.

جلس الشيخ عبد التواب وعبد الصبور ورسلان وتهامي والدميري وثابت في المندرة كان الوقت قد تجاوز الثانية بعد منتصف الليل بعد أن صافحهم صعد الشيخ عمران في خطوات سريعة إلى داخل الدار ومن ثمَّ إلى الأعلى ليدخل غرفة زوجته جملات كانت الغرفة مظلمة تمامًا لكنَّه استرق الخطى حيث كانت جملات وفايزة نائمتان على السرير وقف عمران لحظات ينظر إلى الجسدان

المتدثران بالبطانية وضع يده داخل السديري وأخرج الخنجر ومن ثمَّ رفع يده لينزلها على أحد الجسدين لتقول جملات في فزع:

-هذا أنا يا عمران.

ليقول:

- المصيبة بجانبك.

- نعم.

بمجرد أن ردت كان قد غرس الخنجر في جسدها في عدة طعنات متتالية ثمَّ لف جسدها في بطانية وخرج وقد سالت الدماء على جلبابه ليلاقي خارج الغرفة الحاجة نجية التي نظرت إلى الجثة ثمَّ ضربت على زراع عمران، وقالت:

- تسلم يمينك يا سيد الرجالة!

نزل عمران درجات السلم ليلاقي هريدي الذي قال:

-عنك يا أبويا.

هزَّ رأسه.

- لا يا ولدي.

دخل عمران المندرة ليقف الرجالة، ويقول عبد الصبور:

- عشت يا عمران الجبل يتاوي عارها!

هريدي:

- السيارة جاهزة يا أبويا.

١١

-يا أبويا في كلام خطير سمعته.

في فزع:

- خير يا ولدي

نظر طلعت في الأرض ثمَّ قال:

سمعت أن بيت عبد الفضيل سوف يتربصون بنا في الصباح عند الذهاب إلى المحكمة، ويأخذون بالثأر.

شحب وجه سالم وبدا عليه القلق والفزع، وقال في لهجة يغلب عليها المداعبة محاولًا الظهور في ثوب المتماسك:

- يا بني هذا كلام ناس (هجاصين) بق على الفاضي الواحد فيهم لا يرتدي لباس ويقول لك أنا الفلوس عندي لا أجد لها مكان من كثرتها!

تناثرت الأقاويل هنا وهناك عن العائلة التي اجتمعت وقررت الانتقام، وتأديب من تجرأو عليهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى حمدان هدفهم الأول في الأخذ بالثأر والذي بدوره اختبئ في مكان يستعصي عليهم، وعلى الشرطة نفسها، ومن شدة حرص

حمدان أنَّه لمْ يخبرْ أحد بمكانه حتَّى أقرب الناس إليه ومن بينهم أمه التي حاولت مرارًا وتكرارًا أن تعرفه لكي تطمئن عليه لكنَّه لمْ يفعلْ كان ذلك المكان عند صديق أبيه الذي لمْ يعرفْ به غير حمدان عندما كان يذهب مع أبيه وبعد نشوب الثأر حينها تذكر كلمته عندما قال له -عمك عبد الباسط مثلي تمام صاحب جدع وراجل يحفظ السر، ولا يمكن أن يخون- كان عليه أن ينتقم ليس لثأر كمد روحه وفطر قلبه حزنًا وألمًا وانتزع عامود الخيمة التي كانوا يستظلون بها كبير العائلة إنَّما تمرد على واقع لطالما عانى منه وكم حز في نفسه أن يكون هو الرجل المتعلم المثقف أن ينعت بالواطي من قبل أناس سذج حمقى، تربص له الجهل أينما ذهب وخطف منه بهجة حياته وبعد أن كان ينعم بالسلام في أرض ارتوت من عرقه وكد أجداد الآن تتملكه رغبة عارمة في التدمير، والانتقام.

****

- أنا ذاهب إلى المركز كي أحضر البطاقة يا أبويا.

نظر سالم إلى ابنه طلعت في دهشة، وقال:

- ماذا تقول تذهب في الساعة ٦ صباحًا انتظر واركب معنا في السيارات التي سوف تذهب إلى المحكمة لحضور جلسة ضاحي وبعد ذلك اِنزل في المركز براحتك.

- يا أبويا لن أنتظر أنا سوف أذهب الآن.

أمه في دهشة!
- هل جننت يا بني؟! اسمع كلام أبوك.
هز طلعت رأسه في ضجر ثمَّ لف العمة على رأسه وقال في توتر:
- يا أمي يداهمني شعور بالخوف، ولن أرتاح إلَّا إذا ذهبت بمفردي إلى المركز.
أبيه:
- يا بني انزع هذة الأفكار من رأسك، وإذا كنت تخاف من الأقاويل التي تواترت عن انتقام عائلة عبد الفضيل فهذا كلام فارغ، وللاحتياط نحن سوف نذهب جميعًا مع بعضنا كل رجال وشباب العائلة سوف نستقل سيارتان ميكروباص وحينها لن يتجرؤون على فعل شيء.
أمسك طلعت عصا ومشى عدة خطوات، وقال:
- لا لن أذهب معكم سلام.
هز سالم رأسه في غضب وقال:
- على كيفك.
خرج طلعت وقد وضع الشال على فمه حتَّى صار ملثم محاولًا التخفي ثمَّ سار في خطى سريعة.
في المعتاد كانت السيارات الأجرة التي تنقل أهالي النجع إلى المركز تقف في مدخل البلد لكن طلعت لمْ يمشِ في الطريق المؤدي إليها كما كان يفعل إنما سلك طريق آخر حيث دار حول النجع

حتَّى وصل إلى الطريق السريع ومن ثمَّ أشار إلى سيارة ربع نقل واستقلها.
كان لديه إحساس بأن عائلة عبد الفضيل بالفعل سوف تنفذ تهديدها من أجل هذا ودع أبيه الذي جلس وقال في غضب لزوجته:
- ابنك عمره ما يصبح رجل ماذا أقول لرجال العائلة؟ الذين سوف يتجمعون لكي نذهب سويًّا.
- قول لهم أنَّه مريض، وذهب إلى المستشفى في الفجر.
هز رأسه وقال:
- مريض!! وهل تعتقدي إنَّهم سوف يصدقون؟ كانت ناقصة فضيحة كان يكفي ما بنا أحضرى الجلباب والعمة حتى أذهب.
شيء ما في صدره لا يريد أن يصدقه سريعًا ما يصرفه عن ذهنه بمجرد أن يتطرق إلى خاطره هل من الممكن حقًا أن تنتقم عائلة عبد الفضيل، وتقتل منهم أحد؟ ليقول بعد أن ينفض رأسه لا يمكن أن يحدث ذلك إنَّهم ذاهبون إلى المحكمة وهم عصبة جميع رجال وشباب العائلة.
خرج سالم من داره وقلبه يكاد ينفجر من شدة الخفقان خطواته بدت خجولة كطفل يتعثر في أولى خطواته.
بدا كل شيء طبيعي ذاك الصباح في نجح الهوارة لكن لوهلة يرتجف قلبك مترقبًا حدوث شيء ما وقد تلاحظ سكون على

غير المعتاد وتتسآئل أين هم المزارعون الذي يمتطون حميرهم ويسحبون مواشيهم متجهين إلى أرضهم؟ وأين هم الطلبة الذين يحملون على أكتافهم الحقائب يهرولون خلف حلمهم؟ وأين التجار والموظفون الذين يذهبون في الصباح الباكر إلى المركز؟ أين ذهب كل هؤلاء؟! حتَّى الكلاب التي كانت لا تكف عن النباح استكانت، وكأن النجع قد تعرض لوباء قاتل قضى على كل ما هو حي.

انطلقت ضحكات تدوي من قلوب ترتجف خوفًا وتترقب ريبة رد فعل لطالما تمنت أن لا يحدث وخنعت لذل نخر في جذور ماض تعس، وواقع مرير من أجل أن تستمر الحياة حتَّى تجرعوا الظلم في أفئدتهم كافة.

كانت تلك الضحكات حتَّى يطمئن كل منهم الآخر أكثر منها ابتهاجًا وسعادة أو حتَّى إحساس بنصر غاب سنوات طويلة.

بعد أن امتلأت السيارتان قال نجدي في لهجة يشوبها تهكم:

- طلعت ولدك لمْ يأتِ يا سالم يظهر راحت عليه نومه.

- مرر سالم يده على شاربه، وقال:

- لا يا نجدي لكنه مريض وقد سبقنا إلى المستشفى.

أصلح نجدي العمة ليجعلها تميل إلى الأمام ثمَّ قال:

- سلامته يا سالم.

أحد الأفراد في تهكم!

-أومال نحن لنا غير طلعت.
وفي غمز ولمز راح البعض يهز رأسه في عدم رضا حتَّى قال السائق الذي لا ينتمى لعائلتهم:
- كله تمام يا عم سالم نتوكل على الله.
- توكل يا بني.
كان الاتفاق فيما بينهم أنَّه عند تجمعهم واستقلالهم السيارة تنطلق سيارة ثمَّ بعد ربع ساعة تنطلق الأخرى، وكان ذلك نوع من التمويه، والاستكشاف بحيث لو حدث شيء للسيارة الأولى السيارة الثانية تنجو لذلك كان الجميع سبّاق للجلوس في السيارة الثانية وبالفعل انطلقت السيارة الأولى التي يتواجد فيها معظم كبارات العائلة، وقد أخذت طريقها إلى مدخل النجع حتَّى وصلت إلى الجسر والطريق الأسفلتي الذي يحيط به أعواد الذرة وقبل أن تنطلق ظهر فجأة ستة أفراد من عائلة عبد الفضيل من بينهم عسران والفار وكل منهم يحمل بين يديه بندقية ألية وقالوا في صوت عالي للسائق مهددين -قف وإلا أطلقنا النار عليك-، وبالفعل وقف السائق الذي دب في جسده الذعر ومن ثمَّ نزل، وقال له عسران: -غور من هنا- أخذ السائق يركض، ويقول في هستريا -كان مالي ومال الطلعة دي يا أبويا- وراح جميع من في السيارة يقولون في تداخل للأصوات: -ماذا تريد يا عسران؟!. . إِنتم فاكرينها سايبه-، عسران في حدة: -لا أريد أن أسمع نفس

أحد منكم وإلا أطلقت النار عليكم جميعًا-.
كانت عائلة عبد الفضيل على علم مسبق بتفاصيل خطة عائلة السوالم من وجود سيارة أخرى لا زالت تقف في انتظار أن تمر الدقائق التي راحت تمر بطيئة وقد علت دقات القلوب لتطغي على أصوات الحناجر وأضحى التوتر على أشده ليقول الفار -نريد أن نخلص يا عسيران- ليقول عسران في غضب، وقد اتسعت حدقة عيناه -اصبر يا بهيم- مرت الدقائق واتخذت السيارة الأخرى طريقها بعد أن اطمئن من بداخلها أن كل شيء على ما يرام وبمجرد ما أن وصلت إلى مدخل البلد حتَّى لوح عسران والفار للسائق بأن يتوقف لكن في هذة المرة كان الرصاص انهمر من فوهات البنادق الألية ليتوقف السائق ومن ثمَّ نزل رافعًا يده لأعلى في فزع، ويقول له الفار: -غور من هنا- يركض السائق في ذعر متعثرًا في خطواته، وتعلو الأصوات في السيارتان ليقول عسران في صوت عالي -نريد واحد ينزل حتَّى نأخذ ثأرنا منه- سالم في صوت ضعيف -البلد فيها قانون-.
يضحك عسران والفار وبقية الأفراد ويقول: -قانون يا بن الكلب يا واطي تتجرؤون على أسيادكم القانون إتعمل للضعفاء وليس لنا-.
بدء الرعب يسيطر على جميع من في السيارتان وفي حركة لا إرادية أخذوا يلتصقوا في بعضهم البعض كفراخ تعاني من برد

قارس وود كلًا منهم أن يختفي أو يصير شبح.
ساد الصمت لحظات، وأخذ عسران ينظر إلى الفار ليكرر ما قاله في لهجة صارمة: -واحد ينزل ونترككم ترحلون- أخذوا ينظرون لبعضهم البعض أحدهم يقول: -واحد ينزل ويخلصنا- سرعان ما يرد عليه الآخر -انزل أنت- تمنى بعضهم لو أن يقتلوا جميعًا وينجو هو.
وزاد الصياح وتداخلت الأصوات ليقول الفار بعد أن أمسك بباب السيارة، وأغلقه في قوة وقال: -أنتم واطين أولاد كلب لا بد وأن تموتوا جميعًا- ما أن أكمل الجملة حتَّى انهمرت الرصاصات من فوهة بندقيته الألية وأخذ يردد -لازم تموتوا- وما أن رأه بقية أفراد كتيبة الإعدام حتَّى انتابتهم حماسة وفقدان وعي وفتحوا النار على السيارتان في هستريا واعتلت شظايا الرصاص سماء النجع، وانتابت الأهالي حالة هلع سيطرة على القلوب وأخرست الحناجر وانكمشوا بين جدران منازلهم لعلهم ينجوا وطارت الرؤوس من على الأجساد لقرب مسافة الطلقات، وفاضت أرضية السيارتان بالدماء التي سالت على الأرض حتَّى كونت بركة خاضت فيها أرجل كتيبة الإعدام وراح عسران والفار ينظران على الأجساد ليتأكدا أن الجميع قد مات.

****

- أبصرت عيني على الظلم منذ أن كنت طفل تختالني أحلامي

ويلفظي مجتمع قاسي حتَّى أصبحت عبء على نفسى إنَّها الحياة التي فرضت عليَّ فلتستكين يا قلبي واعلم أنَّه لمْ يعدْ لديك خيار فقد أجبرت على شيء لمْ تكنْ تسعى لأجله.

أدمعت عينا حمدان حيث يجلس على المصطبةً في حالة حزن وانكسار وقد أثقل الهم كاهله، وراح يذرف الدمع ويهز رأسه في أسى، وما لبث أن نهض ثمَّ أمسك بندقية ألية ثمَّ دلف إلى الخارج ليجد الحاج عبد الباسط الذى قال له:

- إلى أين يا بني؟

- إلى المقدر والمكتوب يا عم عبد الباسط.

- وأخرتها؟ الانتقام عمره ما كان حل.

حمدان في غل وعيون تمتلئ بالدموع!

- يعتقد الجاهل المغرور أنَّه ولد متفردًا في الدنيا، وأن بغروره وتجبره يمكن أن يخضع له الضعفاء، من جهله لا يعرف أن الضعيف قد يأتي له يوم ويقوى، وأن كثرة الضغط تولد الانفجار الذي يستطيع أن ينسف قواعد غروره وتكبره طالما وجد مظلوم فلا بد وأن يكون هناك ظالم، وأنا لن أخضع للجاهل وأكون مظلوم.

- يا بني اترك القانون يقتص لك.

ضحك حمدان في سخرية، وقال:

- قانون البشر لن ينصف ضعيف.

ما بين الرقص، والاحتفال أمام القبور والحزن والدموع داخل الدور غرق النجع في الدماء، ورائحة الموت تذكم الأنوف لمْ يهنئ عسران ورفاقه كثيرًا بالفرحة والرقص أمام قبر عدلي فرحين بأخذهم بثأره، وقتلهم عشرين رجل من عائلة السوالم رجل عن كل أصبع من يده ورجليه.

لمْ يجدْ رجال الشرطة مفر إلَّا من القبض على عسران ورفاقه ولأول مرة خاب ظن من كان يوفر له الحماية بل أن الشيخ عمران ناله قسط من العقاب، وفقد مكانته.

كشيخ للنجع، وانتشر رجال الشرطة في النجع، وأول شيء فعلوه إنَّهم قاموا بعمل حاجز بين العائلتين، وعبّدت طريق آخر لعائلة السوالم يمر بعيدًا عن منازل عائلة عبد الفضيل حتَّى لا يلتقي أفراد العائلتين وأصبح النجع ثكنة عسكرية.

داخل مندرة عبد الفضيل يتجمع كُبراء العائلة ثابت ورسلان وعبد الفضيل يضحكون أحيانًا ويدخنون الشيشة أحيانًا أخرى، يبحثون كيفية النجاة مِمَّا صنعت أيديهم وابتلت به عقولهم وإخراج أبنائهم من القضية أو الحصول على أقل حكم ممكن كل منهم يقترح اسم محامي، وكيفية دفع أتعابه عن طريق جمع المبلغ من جميع أفراد العائلة.

اطبقت يدي حمدان على البندقية الألية وأخذ يتحسس طريقه بين الدروب، والطروقات، ود لو كان شبح حتَّى يبلغ مراده وراح

يحدث نفسه -لا يوجد أسهل من القتل إن ابتلى العقل، وتبدد الأمل واختطف الحلم-، وتعثرت قدماه وارتجف قلبه حينما لاح له دارهم من بعيد وتهافتت عليه ذكريات ماضي لمْ يكنْ ليثق فيه حتَّى عندما كان يضحك كان يشعر بغصة لمْ يستطِع أبدًا ابتلاعها، ولوهلة سبح في بحر من الأوهام حينما أراد أن ينير ظلام دامس طبع على أفئدة ناس لمْ تتعلمْ إلَّا القتل والكبر.

استرق حمدان الخطى، والخوف باديًا على قسمات وجهه الذي اكتسى بلون الحزن وأضحى عابس بعد أن أطفأت إشراقة لمْ تكنْ لتغيب من عليه.

ما أن اقترب حمدان من مندرة عبد الفضيل حتَّى تنامى إلى مسامعه كركرة الشيشة، وحديثهم:

- أينعم نحن قتلنا منهم عشرون رجل لكن الحكومة قبضت على خيرة شبابنا الكل خسران يا ثابت.

- من أجل أن نحفظ كرامتنا، وهيبتنا كان يجب علينا أن نضحي حتَّى وأن كسبت المعركة لا بد وأن توجد خسائر

يا عبد الفضيل.

- أنا أكثر واحد خسرت في العائلة يا ثابت، أولادي الاثنين في السجن، وممكن عسران يتعدم!

ثابت في انفعال:

- لا تخف يا عبد الفضيل نحن سوف نوكل أكبر المحامين في مصر، ولن يعدم أحد.

كان حمدان قد اعتلى الحائط، ومجرد ما أكمل ثابت جملته حتَّى قفز حمدان داخل المندرة وانخلعت القلوب من المفاجأة وانتفض الجمع خوفًا، وقال رسلان في حدة:

- أنت يا ابن المكحوت؟!

حاول ثابت أن يضع يده في جيب السديري لإخراج الطبنجة لكن حمدان عاجله برصاصة في كتفه ليصرخ من شدة الألم، وقال حمدان وهو يجز على أسنانه!

- من ابن المكحوت يا أولاد الكلب؟ أنا أشرف وأفضل منكم. . . هنا تصببوا عرقًا، وخرست ألسنتهم من شدة الخوف وأكمل حمدان. . . إذا كان أولادكم لن يعدموا لكن أنتم سوف تموتون الآن، وتدفعون ثمن كبركم، وافترائكم. . .

أطلق حمدان الرصاص الذي انهمر يحصد في الأرواح وامتلأت أرض المندرة بالدماء، والأجساد ونظر حمدان إلى أعلى، وقال في صوت عالي: -ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب- وما أن اقترب من البوابة حتَّى سمع صوت ينادي عليه وقف ثمَّ نظر إلى الوراء ليرى ضحى التي قالت في نظرات شاردة:

- سوف تهرب وتتركني يا حمدان.

نظر حمدان في الأسفل وأخذت ضحى تخطو إلى الأمام حتَّى خاضت في الدماء التي سالت على الأرض، وتجمد حمدان مكانه وأدمعت عيناه لتقترب منه ضحى، وتضع يديها على صدره هنا

حمدان نسى كل شيء واحتضنها في قوة وأغمض عيناه وتذكر الأيام الخوالي عندما كانا يتسامران تحت الشجرة، وفجأة شعر بوخزة أعقبها ألم شديد وابتسم حينما أدرك ما حدث ليقول في صوت ضعيف:

- سوف أظل أحبك يا ضحى سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة فقد انغرس حبك في قلبي كما انغرس خنجرك في ضهري!

****

كانت الحجة وهيبة تجلس على الأرض تضع خدها على راحة يدها شبه مغيبة تمامًا وإلى جانبها نسمة التي تبكي في حرقة على قتل أبيها، وما آلت إليه أحوالهم حتَّى سمعا أصوات الرصاص هنا استفاقا، وانتبهت جميع حواسهم، وازداد قلقهما وخوفهما ومن ثمَّ فتحا البوابة، وراحا ينظران حتَّى لمحا سفروت يركض في هلع، ويقول: -حمدان قتل عائلة عبد الفضيل- لمْ تكدْ تسمع الحاجة وهيبة الكلام حتَّى خلعت عصبة رأسها، وأخذت تزغرد لتسأله نسمة في صوت عالي:

-هل حدث شيء لحمدان؟

ليقول لها بعد أن اقترب منها,

-لا أحد يعرف إذا كان حي أم ميت ضحى ضربته بالخنجر!

هزت نسمة رأسها ثمَّ ارتمت على الأرض، وصرخت بأعلى صوتها,,,

حمداااااان!

تمت

مسار
للنشر و التوزيع
Massar publishing & Distribution

01020439639